فلسفة التحرير

مشروع الذات المقهورة

قراءة لكتاب الفيلسوف المكسيكى

ريكو دوسيل Enrique Dussel

قراءة: دكتورة فريال حسن خليفة



لوحة الغلاف للفنان القدير: عبدالغفار شديد

مكتبة مدبولى

مكتبة مدبولى

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ – فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
البريد الإلكترونى :
WWW.madboulybooks.cominfo@madboulybooks.com

الكتاب : فلسفة التحرير مشروع الذات المقهورة
قراءة : د. فريال حسن خليفة
الغلاف للفنان : محمود الهندى
رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٢٢١٢٦
الترقيم الدولى : 977-208-675-1
القطع : ١٧ × ٢٤سم

الطبعة الأولى ٢٠٠٧م

مطابع الشرطة للطباعة والنشر والتوزيع

ش المرور بالدراسة – القاهرة
تليفون : ٥٩٠٣٠٣٠ – ٥٩٠٣٥٣٥

فلسفة التحرير مشروع الذات المقهورة

قراءة لكتاب "فلسفة التحرير"

للفيلسوف المكسيكى ريكو دوسيل

Enrique Dussel

دكتورة / فريال حسن خليفة

مكتبة مدبولى

المحتويات

الموضوع

" فلسفة التحرير مشروع الذات المقهورة " الصفحة

الباب الأول

مقدمة وإشكاليات

الباب الثانى

منهج التحرير ومقولاته

الباب الثالث

مجالات عمل التحرير



الباب الأول

مقدمة وإشكاليات

الفصل الأول
لماذا فلسفة التحرير ؟

عملت التخصصات الأكاديمية في الجامعات العربية على تناول الباحثين في مجال الفلسفة ، حقباً محددة من تاريخ الفكر الفلسفي ، لنقول هذا متخصص في الفكر الشرقي القديم ، أو في الفلسفة اليونانية ، أو في الفلسفة الهيلينية والرومانية ، أو في الفلسفة الإسلامية ، أو في الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى ، أو في عصري الإصلاح والنهضة ، أو في الفلسفة الحديثة ، أو المعاصرة .

ويبدو تمكن الباحث من مقاربة روح العصر ، وأهدافه بمحاولة فهم أفكاره وإشكالياته والتعبير عنها وتأويلها أو نقدها ، وكل ما يحدث لا يتجاوز أكثر من محاولة الفهم الجيد للأفكار الفلسفية وصياغتها ، وإعادة تركيبها في بناءات جديدة .

لذلك تبدو الأبحاث الفلسفية -ومنها أبحاثي - أقرب إلى تاريخ الفلسفة عن أن تكون محاولة للتفلسف ،فهي محاولة لفهم الفلاسفة وتمثل أفكارهم في شكل نقدى ، وتقديمها إلى الثقافة العربية ، وأقصى ما يصل إليه الجهد هو محاولة إبراز القيم الإنسانية الإيجابية التي تتضمنها هذه الفلسفات ، وكيف أن غياب هذه القيم عن واقعنا الثقافي بات يشكل جانباً من جوانب الخطر على تطور مجتمعاتنا العربية .

ورغم اتساع هذه الجهود البحثية الأكاديمية المتخصصة ، نجد أن العزل الواقع على الجامعات بعيداً عن العمل الجماهيري السياسي والحزبي أفضى إلى انعزال الأكاديميين عن الواقع بمشكلاته الحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإنسانية ، فأصبح حال التعامل مع الفلسفة على المستوى التاريخي والصوري لا على مستوى " جدل النظرية والممارسة " فلا تفعيل لفكر فلسفي أو توطين له في الواقع ، ولا تفلسف نابعاً من الواقع ذاته مرتبط به متلاحم بمشكلاته ، ولا كاشف لتناقضاته ولا متجاوز لها . وبذلك أصبحت التاريخية والصورية ، وجهين للقصور والخطر ، يلمان بمصير الفلسفة ، ويباعدان بينها والواقع المعاش بخبراته الحية ... مرها وطيبها .

وعلى هذا أصبحنا ننقل ونقلد ونردد ماقاله الفلاسفة من تراث الذات أو تراث الإنسانية فى الغرب والشرق. وعلى سبيل المثال كثيرا مانردد قول ماركس الوارد فى مقدمة كتابه " نقد الاقتصاد السياسى " حيث يقول " إن أسلوب إنتاج الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والعقلية بوجه عام ، فليس وعى الناس هو الذى يحدد وجودهم ، ولكن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم "(١) .

فالفكر يصدر عن الوجود المعاش للناس ، ولكننا فى الآن نفسه نتناسى ونغيب أو نُغيِّب عن وجودنا وواقعنا المعاش بمشكلاته الحية ، ونعيش مع الفلسفة على المستوى الصورى والتاريخى . دون أن نبلغ الارتباط بالواقع ومحاولة كشف تناقضاته والتفلسف على أساس من مشكلاته وإشكالياته.

ومن يعى وجه الإشكال يهتم بنقد الذات ويسأل أين الفلسفة من واقع مجتمعاتنا العربية؟ وما يخطط لها فى الدول الكبرى؟ أين الفلسفة مما يجرى فى العراق الذى اقترب عدد شهدائه من المليون شهيد ؟ أين الفلسفة من مشكلات فلسطين ؟ أين الفلسفة من لبنان، من دارفور ، من الصومال ؟ أين الفلسفة من القهر والقمع والتسلط والفقر والبطالة والتخلف؟ أين الفلسفة من الأمية والسجون والمعتقلات ، وقوانين الطوارئ ، والدساتير "حضانة الاستبداد" على حد تعبير فريدة النقاش؟ أين الفلسفة من سياسات الإسكان وانتشار العشوائيات ، أين الفلسفة من الأغذية المسرطنة ، وتحويل التربة العربية إلى مزبلة لدفن نفايات الدول المتقدمة؟ أين الفلسفة مما تعج به المجتمعات العربية من معاناة الإنسان العربى واغترابه فى نفسه وفى عمله وفى مجتمعه ؟ أين الفلسفة من النظم العربية المنبطحة أمام الهيمنة الأمريكية؟

أين الفلسفة من حياة الناس والشعوب التى بهذه المواصفات ؟ وهل يمكن وجود فلسفة تتجاوز بهم ذلك الواقع المقهور ؟ وتخطو بهم إلى طريق التحرير والعدل والإنتاج والإبداع؟ هذا السؤال قد أجاب عنه الفيلسوف المكسيكى " ريكو دوسيل " بالإيجاب . نعم إنها

(١) كارل ماركس . نقد الاقتصاد السياسى ، ترجمة راشد البراوى ، دار النهضة العربية ١٩٦٩ ، ص ٧ .

"فلسفة التحرير" هي المشروع المستقبلي لكل ذات مقهورة ، فرداً أو أقلية ، أو طبقة أو مجتمعا أو أمة أو العالم الثالث ككل . مشروع لا يصوغه فرد أو جماعة ، ولكنه وعي الشعب . إن فلسفة التحرير كمشروع مستقبلي لكل ذات مقهورة هي القضية المحورية في كتاب ريكو دوسيل " فلسفة التحرير" .

وقد يتهكم البعض على " فلسفة التحرير " ويزعم أننا أحرار في وطننا " مصر " والرد على هذا الادعاء بسيط . هل تحررنا اقتصادياً وتكنولوجياً ؟ هل تحررنا سياسياً ؟ هل تحررنا ثقافيا ؟ هل تحررنا تربوياً ؟ هل تحررنا إنسانياً ؟ هل أصبحنا نحدد أهدافنا ونختار طريقنا ونمارس حقوقنا ، ونستمتع بعدل بخيرات بلادنا ، ونشكل حكوماتنا بالشكل الذى نرتضيه ؟ أم أننا مازلنا أفراداً وشعوباً نعاني القهر في صور مختلفة ، ومن مصادر متعددة ، قد تكون إما من الخارج ، وإما من الداخل ، وإما من الاثنين معا وذلك هو الغالب .

وهذا يثير البغض والقلق في النفس . إننا كأناس وشعوب العالم النامي ، لا نُعامَل في داخل أوطاننا ،ولا من دول القهر الخارجي ، على نحو ما يجب أن يُعامَل الإنسان وتُعامَل الشعوب ، ولا أعني بهذا أننا نطالب أن نُعامَل وكأننا غاية في ذاتنا وفقاً للمبدأ الكانطي . ولكننا على الأقل نرفض أن نكون وسائل في يد الطغاة من الداخل والخارج ، نرفض الضعف والتبعية والقهر والفقر والتخلف والظلم والاستغلال ، لذلك علينا أن نتذكر جيداً قول توماس بين المفكر المدافع عن حقوق الإنسان " إن قوة الطغيان تقوم تماما في الخوف من مقاومته ، لذلك من أجل أن تكون حراً يكفي أن تكون لديك إرادة مقاومة الطغيان(٢) " ، معنى هذا أن الضعفاء هم الذين يصنعون الأقوياء ، فعلى الضعيف أن يخرج عن ضعفه وخوفه ، ويتمسك بحقوقه ، ويثق بنفسه ،ويعتمد على عقله وإرادته ، ولا يهاب النفي أو السجن أو الموت ، وعليه أن يتذكر تماما قول ريكو دوسيل " من لا يخاف الموت يكون مخيفا"(٣) لنخض معاً طريق التحرير .

---

(2) Thomas Paine, The Rights of Man , Cambridge University Press , 1989, Part II, P. 194.

(3) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, Translated From the Spanish by Aquilina Martinez and Christine Morkovsky , Orbis Books ,Maryknoll, Newyork ,1990, P65.

تبدو أهمية كتاب " فلسفة التحرير" من حيث أنه إطار نظرى للعمل الثورى لتحرير المقهور وتغيير واقعه . هذا الكتاب أهداه مؤلفه " ريكو دوسيل " إلى الشعوب المقهورة : شعوب أمريكا اللاتينية ، وآسيا ، وأفريقيا ، أهداه إلى شعوب نيكاراجوا ، السلفادور ، وجواتيمالا ، أهداه إلى كل ذات مقهورة ، فرداً أو أقلية ، أو طبقة ، أو شعباً ، أو أمة ، فالطريق فى نظره إلى التحرير واحد.

ويعرَف المؤلف فلسفة التحرير بأنها فلسفة، فلسفة شعبية " من الشعب إلى الشعب " فلسفة تدفع بالحركات التحررية ، فلسفة تعبر عن الضغوط القاهرة على شباب العالم ، وعن ضيقه ، تعبر عن المقهورين فى الأرض ، وتدين تاريخ العالم وتحكم عليه. فلسفة التحرير هى نقد للقهر ، وتغييرفعلى للواقع كما يقول دوسيل.

فى المقدمة يصف المؤلف كتابه بأنه إطار فلسفى نظرى للعمل الثورى موجه إلى شعوب " المحيط " . وما يعنيه المؤلف بالمحيط أمريكا اللاتينية وأفريقيا السوداء وبعض الدول فى آسيا، ولكنه يخاطب -أيضا - القراء فى المركز ، الذى يضم أوروبا ، والولايات المتحدة الأمريكية واليابان ، والاتحاد السوفيتى (سابقاً) .

ويبنى المؤلف هذا التمييز بين المركز والمحيط على شكل من الوعى التاريخى والسياسى والفلسفى يكشف فيه العلاقة بين الجغرافية السياسية والفلسفة. ويؤكد على أن التمييز بين المركز والمحيط واقع موجود فى كل العصور، يحدث بفعل انتقال القوة من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر . فمن كان مركزاً فى الماضى صار محيطاً ، ومن كان محيطاً صار مركزا. فالمركز والمحيط ليس واقعاً ثابتاً ولكنهما واقع يحدده مستقر القوة.

وانتقال القوة من مكان إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان على نحو يبدو من مضمون الكتاب ، ليس حتمية طبيعية ، ولكنه فعل ناتج عن إرادة إنسانية ، ليس فعلا تقليديا أو منسوخا، ولكنه إبداع ،إنه حرية وإنتاج واقتصاد وعلم ، إنه فعل نقدى ثورى عن مبدأ واختيار، وليس فعلا فوضويا.

إن كتاب " فلسفة التحرير" ، كتاب تُعبق ثوريته ذهن القارئ ، وبفيحها ينتشى وجدانه،

ينزع عنه غبشة اليأس ليرى طريق التحرير واضحا في مقاربة المقهور، والخروج على النظام القاهر، والإلحاد بفتشيته سياسياً وجنسياً وتربوياً ، وصحوة الضمير الأخلاقي ، والنقد وتحمل المسئولية ، والإنتاج والإبداع والخلق ، في فكر حر لا ترديد ولا تقليد ، في قراءات جديدة للدين ، العبادة الأسمى فيه هي خدمة المقهور ، والمطلق اللامتناهي شعب حرر ذاته. واقتصاد التحرير ينزع رداء التبعية الذي يُسدله عليه اقتصاد السوق ، والشركات المتعددة الجنسية ، والمتعدية للقومية بقيودها الحديدية من اتفاقات الجات والتجارة الحرة.

" فلسفة التحرير" كتاب ثوري بكل المعاني ، يفجر روح النقد ، ولكنه ليس مجرد نقد نظري، إنه يجمع إلى جانب النقد النظري النقد العملي فلا معنى ولا جدوى من فكر يظل بعيداً عن الممارسة. ففلسفة التحرير هي جدل النظرية والممارسة ، ومفكر التحرير أو فيلسوف التحرير لا يكون في برج عاجي بل في تقارب وتلاحم عضوي مع الخارجين المقهورين على طريق التحرير.

كذلك تبدو مرجعية المؤلف في هذا الكتاب ليست مرجعية ماضوية، فهو ضد التقليد في مجال التراث وحيث لا يجب التمسك إلا بإيجابيته الخصبة الغنية ، ومرجعية المؤلف ليست أيضا مرجعية دينية ، ففي نهاية هذا الكتاب وفي فقرة واحدة منه ، يطالب بقراءة جديدة للدين ، ويكون مضمون هذه القراءة ، عمليا ، بناء ، إيجابيا ، ليشكل وعيا عند الناس ، ويكون هذا الوعي الديني دافعا في العمل الثوري ، وتكون العبادة فيه خدمة المقهور، ويكون الله فيه شعباً حرر ذاته.

وهذا الكتاب ليس مجرد نظرية للعمل الثوري ، ولكنه يرسم استراتيجية لثقافات شعوب العالم الثالث، فهو يطالب المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية بمراجعة قناعتهم الثقافية ، وما يطالب به المؤلف هنا ليس دعوة للعودة إلى المرجعيات الدينية ولكن دعوة لفهم جديد لمعنى الفلسفة ودورها، وما ينبثق عنها من قيم ثقافية، فالفلسفة- كما يقول المؤلف- لا يجب أن تحكي فلسفة بل تحكي واقعا ، وإلا سقطت في التاريخية ، والعالم المقهور عالم المحيط ، له واقعه الخاص بحاجة إلى إبداع فلسفي جديد يأخذ بأيدي المقهورين،

ويسير بهم إلى طريق الثورة والتحرير ، ليس بحاجة إلى التقليد والترديد . لأن تقليد قيم حضارة المركز وترديدها يقوى المركز بشكل أشد وأقوى ليبقى مركزا ، و لكنه لا يقوى المقهورين ولا يغير واقعهم . والمقهور بحاجة إلى التحرير ، والتحرير عمل وممارسة يتطلب إطاراً نظريا جديدا يسترشد به ويتوجه من خلاله . إنه يتطلب " فلسفة التحرير " .

ورغم تأثر المؤلف الواضح بفيورباخ وماركس وماوتسى تونج وفرويد وغاندى وسارتر فى تحليلاتهم المنهجية ومصطلحاتهم الفلسفية ،إلا أن الكتاب بعيد عن التقليد والتبعية ، وهو يؤكد بحق أن فلسفة التحرير لا تحكى فلسفة بل تحكى واقع الشعوب المقهورة الواجب نقدها وتجاوزها . وعلى مفكرى دول المحيط وفلاسفتها ، أن يحكوا واقع المحيط لتكون الفلسفة فلسفة وليس تاريخاً للفلسفة ، ويكون الفيلسوف فيلسوفاً عضوياً وثورياً ، يقارب المقهورين ، ويسير بهم على طريق التحرير .

وتأسيساً على السابق يبدو موقف فلسفة التحرير من التراث الإنسانى موقفاً نقدياً يتجاوز الاستغراب والاستشراق ، فالموقف النقدى من التراث غربى أو شرقى ، من تراث الذات وتراث الآخر . فالنقد هو الموقف الأساسى لفلسفة التحرير ؛ ولذلك ينقد دوسيل فلسفة الظاهريات والوجودية ، والوضعية المنطقية ، والفلسفة التحليلية باعتبارها ضد النقد التاريخى والسياسى ، وهو موقف يراه دوسيل إخصاء للفلسفة بمنعها من النقد التاريخى والسياسى . وليس معنى النقد الانغلاق على الذات ،لأن ريكو دوسيل يرى فى الماركسية إيجابيات كثيرة تسمح للمقهور بأن يكتشف سرقة المركز لفائض القيمة أو فائض العمل الذى يحققه المحيط ، فيقول بضرورة توطين النظرية فى الواقع التاريخى للمحيط ، وبدون هذا تنحط الماركسية إلى إيديولوجيا جديدة ، وتكون الماركسية أشبه بالألعاب النارية ، إذا لم تكن مرتبطة بشكل تاريخى بالطبقات العامة .

كما يؤكد دوسيل أن التحليلات الفلسفية التاريخية للمحيط ،تتطلب بناء قويا للمقولات ، لأن التأويل التاريخى بدون إطار مقولى دقيق ، وبدون فروض مرشدة تفسر نتائج العمل العام والقومى للتحرير تسقط التحليلات الفلسفية فى التاريخية .

وتطالب فلسفة التحرير بأن يتضمن الخطاب الفلسفي في المحيط بشكل عضوى كل الخطابات الفلسفية السابقة له بعد إعطائها المعنى الجديد بالتصديق ،لذلك يطالب ريكو دوسيل فلاسفة التحرير بالتغلب تاريخياً وفلسفياً على الفسيولوجية physiologism اليونانية ، واللاهوتية الوسطية ، والذهنية العلمية الحديثة للمركز بوصفها تعمل على الأنثروبولوجيا . إن فلسفة التحرير هي الفلسفة التي محورها هو الشخص المقهور الخارج على النظام القائم القاهر ، وفعل الخروج هو فعل النقد وتأكيد الحرية . وتكون الميتافيزيقا والأخلاق قلب السياسة عند الطبقات الشعبية" . (٤) باعتبار ما تحمله مقولات عمل التحرير من معانٍ ميتافيزيقية وأخلاقية.

ويقول دوسيل إن فلسفة التحرير هي خطة عمل يجب أن يبدأ بالفعل من محيط المركز المسيطر ، ويعيد التفكير في كل شيء نفكر فيه . وما هو أكثر ضرورة أن نفكر فيما لم يكن التفكير فيه ممكنا أبداً ألا وهو عملية التحرير لبلاد المحيط التابعة للمركز ، واختيار عمل التحرير وممارسته ، هذا العمل هو بداية فلسفة التحرير(٥) .

ومنهجياً يسمى ريكو دوسيل فلسفة التحرير ، معرفة ديالكتيكية علمية ، تعطى الأولوية البحثية للعمل أو ممارسة تحرير المقهور . لذلك فإن فلسفة التحرير عند ريكو دوسيل هي جدل الكلمة والفعل وليست المقاومة بالكلمة فقط كما هو الحال عند " فشته فيلسوف المقاومة "(٦) .

فلسفة التحرير هي معرفة نظرية في جدل عيني ، هي عمل وممارسة غايته نقد القهر وتحرير المقهور . فلسفة التحرير هي عمل يجذر ذاته في " مقاربة " الخارج المقهور : طبقة أو شعبا أو أمة . الذات صاحبة الدور المقاوم في فلسفة التحرير ، ويكون الفيلسوف في ترابط عضوى مع المقهورين الخارجين على النظام القائم القاهر ، وبدون ذلك يستحيل عمل فلسفة التحرير في واقع فعلى متغير .

---

(4) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION , P. 170.

(5) Ibid , P.170.

(٦) حسن حنفي ، فشته فيلسوف المقاومة ، مركز الكتاب للنشر ، ٢٠٠٣ ، ص ٤٤١ .

ويرى دوسيل أن جدل النظرية والعمل يسمح للفرد أن يكون قادراً على الوصول إلى أقصى وعى نقدى ممكن. وفلسفة التحرير هى إطار نظرى لعمل التحرير للجهاد والكفاح، ودور الفيلسوف كعقل نقدى فى ترابط عضوى مع الشعب ، يجعل من الفلسفة نقد كل نقد ، هكذا تكون الفلسفة هى موت ، موت يومى everydayness يعمل على قيام نظام جديد وتأمينه. الفلسفة هى مخاطرة ، مخاطرة الموت ، لأن هذه الفلسفة تظهر داخل النظام كأسير وشاهد على نظام مستقبلى جديد. إنها صياغة لغضب المقهورين ، وقد ارتفع وزاد بواسطة الإدراك النظرى الشامل لبنية النظام المسيطر(٧). وكما أن فلسفة التحرير تنقد النظام القائم القاهر، فإن النظام ينقدها ويضطهدها أيضاً ، والفلاسفة الذين يمارسون فلسفة التحرير هم أهداف للقنابل أو المتفجرات ، ومحرومون من جامعاتهم ، ومطرودون من أوطانهم ، ومحكوم عليهم بالموت من وكلاء الإمبريالية والفاشية ، ولكن رغم ذلك يردد دوسيل مع الشاعر الكاريبى Pedro Mir أغنيات المقاومة .

- الآن جاء وقت الغناء المقاوم .
- نحن عمال الطريق الرئيسى .
- نحن الطلاب .
- نحن عمال المناجم .
- نحن عمال المزارع .
- نحن فقراء الأرض .
- نحن سكان العالم .
- نحن أبطال العمل اليومى .
- بحبنا وشجاعتنا .

(7) Enrique Dussel . PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.179.

يفتتن قلبنا بالأمل"(٨).

ويتكون كتاب " فلسفة التحرير " من مائتي وخمس عشرة صفحة، ويضم خمسة فصول ، فضلا عن المدخل ، وتزييلاً يحمل عنوان " الفلسفة والعمل" .و" الفلسفة والعمل " ورقة بحثية قدمها ريكو دوسيل للجمعية الفلسفية الكاثوليكية الأمريكية ،في فلادلفيا في أبريل ١٩٨٠ ، ولم تنشر في الطبعة الأصلية لكتاب " فلسفة التحرير" المكتوبة باللغة الإسبانية. " الفلسفة والعمل " بمثابة قراءة مختصرة لفلسفة التحرير، تقدم الأساسيات وتثير القضايا الخلافية مع الفلسفات الغربية المعاصرة. الفصل الأول من الكتاب بعنوان "التاريخ" وهو مكون من جزءين : الأول عن " الجغرافيا السياسية والفلسفة " والجزء الثاني " فلسفة تحرير المحيط ". والفصل الثاني بعنوان " من الظاهريات إلى التحرير " ، والفصل الثالث "من السياسة إلى الضد فتشية ". والفصل الرابع " من الطبيعة إلى الاقتصاد " والفصل الخامس " من العلم إلى فلسفة التحرير.

على أني أود أن أنبه القارئ الكريم إلى أنني في عرض هذا الكتاب " فلسفة التحرير " لم ألتزم بنفس مُسمى العناوين الخاصة بالفصول ، مع أنني حافظت على مضمونها بقدر فهمي لها ، وأقدمها بإيجاز قد يبدو في بعض الفصول الأخيرة شبه تلخيص نظراً لتعدد المجالات التي يخوض فيها الكتاب فضلا عن صعوبتها ، ولكنني رغم صعوبات هذا الكتاب جعلت كل غايتي تقديمه إلى القارئ العربي بقدر فهمي له ، فهو في تقديري يشكل بحق مطلباً نظرياً ضرورياً لعمل التحرير تسترشد به كافة القوى من الشعوب العربية المناضلة بل وكل الشعوب المقهورة ، في ثورتها التحريرية ضد أشكال الإرهاب والقهر الواقع عليها من الداخل أو الخارج ، كالقهر الذي تمارسه الإمبريالية الأمريكية خشية على مصالحها متخفية بقناع الحرب على الإرهاب والدفاع عن حقوق الإنسان والديمقراطية . ويرسم هذا الكتاب - لشعوب المحيط المقهورة بل وكل شعب مقهور- خطوات طريق التحرير التي تبدأ بنقد القهر والتسلط الواقع عليه ، من النظم القائمة الحاكمة في الداخل ، وهي نظم أغلبها

(8) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.180..

عميلة وتابعة للمركز الإمبريالى ، وما تؤكده كل لحظة فى الممارسة اليومية ضرورة الخروج عليها ومناهضتها فى شجاعة وقوة ، فعلى كل مقهور أن يتذكر دائما قول ريكو دوسيل "من لا يخاف الموت يكون مخيفا "(٩) .

(9) Ibid. P.65.

الفصل الثانى
بعض الإشكاليات والقضايا المهمة فى فلسفة التحرير

قد يكون تحديد بعض الإشكاليات والقضايا التى يثيرها كتاب " فلسفة التحرير " أمراً جيدا قد يساعد في تكشف موقف ريكو دوسيل بوضوح فى عين القارئ ،خاصة أنها إشكاليات وقضايا حية ، تشكل موضوعات للتعارض بين الفلاسفة ، ولم ينته الجدل فيها بعد ،ومن هذه الإشكاليات والقضايا نذكر :

- العلاقة بين العلم والإيديولوجيا ، والفلسفة والإيديولوجيا .
- طبيعة العلاقة بين الفيلسوف والجماهير ودوره فى فعل التحرير .
- الفلسفة والتفلسف والارتباط بالواقع .
- الحاجة إلى قراءة جديدة للدين فى دول المحيط .
- الخلق ميتافيزيقا الحراك التاريخى .
- لا تحرير حقيقياً بدون تحرير سياسى واقتصادى وثقافى وجنسى .
- التحرير جدل النظرية والممارسة وليس عملاً فوضوياً .

وقضية العلاقة بين العلم والإيديولوجيا هى القضية التى أثارتها الفلسفة المعاصرة ، أو فلسفات ما بعد الحداثة .بزعم أن العلم محايد لا هو شرقى ولا غربى ، ولا هو إسلامى ولا مسيحى . وأقامت هذه الفلسفات المعاصرة المقابلة بين الإيديولوجيا والعلم ، وفى نظرهم حيث يوجد العلم لا توجد الإيديولوجيا ، وهذا الاستبعاد والعزل بين العلم والإيديولوجيا هو ما يصفه ريكو دوسيل بأنه إيديولوجيا . مؤكداً أن " العلمية " التى ينادى بها المركز فى مقابل الإيديولوجيا هى " إيديولوجيا " أشد .لذلك يقول دوسيل عندما يتجرد العلم وينفصل عن شرطه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وعندما ينسى أن معادلاته الرياضية يمكن أن تساعد الجندى على إصابة الهدف فى العراق أو فلسطين أو فيتنام بالقنابل الحارقة فيصبح العلم مذهبا علميا أو "علمية " Scientism ويزعمون رغم ذلك أن العلم محايد تماما

في مباحثه ، وأنه يمكن أن يحاكي في كل مكان في العالم. ومن ثم ينقد ريكو دوسيل فكرة أن العلم محايد وأن المشكلة تقوم في استخدام الناس للعلم ، ولكن رغم هذا لا يمكن أن نفهم من رأى ريكو دوسيل أنه يدعو إلى توقف العلم. إنه في الواقع يدعونا إلى الاعتراف بأن هناك علاقة بين الإيديولوجيا والعلم، ولا يجب التهرب منها أو إنكارها.

ومن ثم يناقش ريكو دوسيل العلاقة بين الفلسفة والإيديولوجيا ويؤكد عليها معارضاً مزاعم الفصل المطلق بينهما الذى تدعيه الفلسفات الغربية المعاصرة ، ويرى الفلسفة تفكيراً نقدياً ديالكتيكيا فيه تبدو العلاقة بين الفلسفة والعمل واضحة، وهى علاقة جدلية ، والجدل(كما قال ماركس من قبل) بين النظرية والممارسة أساس تطور النظرية وتطور العمل، وعلى أساس هذه العلاقة الجدلية بين الفلسفة والعمل فإن استقلال الفلسفة المزعوم هو استقلال نسبى وليس مطلقا.

ويرى دوسيل المعنى الأساسى للعمل ، كجملة بناء العمل فى حقبة تاريخية ، هذا الفهم للعمل يضع الفلسفة على المستوى الإيديولوجى ، إذا فهمت الإيديولوجيا بأنها نسق من الأفكار التى تفسر وتبرر وتموه وتحصن العمل، فكل ممارسة نظرية لها استقلاليتها النسبية. فالاستقلالية النسبية للفلسفة لها دلالة بالنسبة للمجموع التاريخى والعينى الذى منه يظهر وإليه يعود العمل اليومى (١٠) .

ويبرهن ريكو دوسيل رأيه بمثالين(١١) من أرسطو والأكوينى، ويرى من الصعب تجنب مساهمة الإيديولوجيا الفاسدة عند هؤلاء الفلاسفة العظام : أرسطو فى كتاب " السياسة "ج١ رقم ١ يرى أن الطبيعة الفيزيائية تميز بين أجسام الأحرار والعبيد ، جعلت أجسام العبيد أقوى للعمل الخسيس ، واستقامة الآخر بلا فائدة فى مثل هذا العمل ، وهذا يدل على أن بعض البشر بالطبيعة أحرار ، والبعض عبيد . وكأن العبودية حق يناسب هؤلاء .

وما يستحق الاعتبار فى الرأى الأرسطى، هو اليقين الذى ينسبه أرسطو للطبيعة

(10) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION P.181

(11) Ibid,,P. 182-183.

واعتبارها أصل الاختلاف التاريخى والسياسى بين الإنسان الحر والعبد. فالحجة الفلسفية أصبحت كلاً ملوثاً بالعبودية الهلينية.

ووفقا لرأى الفيلسوف توما الأكوينى ، فإن المبدأ الفعَّال للخلق هو من الأب بينما توفر الأم المادة ، فالرجل يعطى الوجود المطلق للطفل والأم تعطيه المادة، والرجل أسمى بالنسبة للمرأة ، فالإيديولوجيا الذكورية هي مجموعة أفكار تبرر سيطرة الذكر على الأنثى (جنسيا واقتصاديا وسياسيا وتربويا) وهكذا تبرر الفلسفة الأخلاقية التوماوية الإيديولوجيا التسلطية .فالقول بأن الإيديولوجيا استدلال و تبرير فلسفي فاسد ، لا يعنى أن مثل هذا الاستدلال غير صحيح ، إنها تشير فقط لما هو خطاب إنسانى غير معصوم. ولا يكون معرفة مطلقة لأنه يشير إلى العمل ، والعمل فعل تاريخى عينى قامت الفلسفة بتبريره، فالفلسفة ذاتها محددة بالعمل ، ولكن لايوجد تحديد مطلق ولا استقلالية مطلقة.

والعلاقة بين الفلسفة والعمل تثير السؤال عن دور الفيلسوف ، وعلاقته بالجماهير المقهورة، وهذه العلاقة يجب أن تكون كما يقول "جرامشى" علاقة عضوية ، ذلك مايأخذ به ريكو دوسيل ، فلا مكان عنده للمفكرين والفلاسفة الفوقيين المنعزلين عن الواقع ، ولامعنى عنده للرأى القائل بوجود الوسطاء بين الفيلسوف والجماهير ،ويرى أن الفيلسوف يجب أن يكون منخرطا انخراطا عضويا بالفعل فى واقع الجماهير ، وهو ما يعنيه ريكو دوسيل بالتمفصل العضوى مع المقهورين ، ويعتبر هذا الترابط العضوى مع المقهورين هو الشرط الأساسى للتحرير . وهذا الترابط العضوى له ما يبرره وله أهميته، إنه يضع الفيلسوف داخل أعماق واقع الجماهير المقهورة ، وهو ما يزيد من خبرة الفيلسوف ويساعده فى تعديل أفكاره وتطويرها. هذا من جانب ، ومن جانب آخر يقول دوسيل : " إن الخبرة التى توجه عصراً من العصور ، لا يمكن أن تكون طريقاً دائماً للحياة. فالواقع الفعلى متغير ، وبدون الاقتراب منه والارتباط به عضوياً يصعب أن يكون للفلسفة دور فى تحريره بنقده وتغييره" (١٢) .

---

(12) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION , P.189.

ولذلك يبدو ارتباط الفيلسوف ارتباطاً عضوياً بالذات المقهورة أمراً ضروريا إذ ليس الفيلسوف هو " الأنا المطلق " كما هو عند نيتشة ، ولكن الفيلسوف ذات متناهية مشروطة، محددة نسبيا بعالم الحياة اليومية ، وبالعمل اليومى ، مرتبطة بالذات التاريخية ، بالطبقة الاجتماعية ، بالشعب وممارساته الأساسية.

صحيح أن الفيلسوف كما يقول دوسيل فى ارتباطه بالذات التاريخية هو حامل الكجيتو أو " الأنا أفكر " بداية كل " أنا " (أنا أعمل) (أنا أفعل) (أنا أرغب) ، فى ترابط داخل جماعة ، أو شعب أو أقلية أو طبقة من أجل الواقع العملى الكلى. ولذلك يربط الفيلسوف بين المصلحة العملية والخطاب الفلسفى من واقع علاقته الجدلية مع الذات المقهورة ، أى أنه يجعل المصلحة العملية العامة مشروع الكل العملى للجماعة أو الطبقة أو الأمة ، ويدلل ريكو دوسيل على رأيه هذا من تاريخ الفكر الفلسفى فيقول : عبر كل التاريخ برزت قضايا الفلسفة بسبب الضروريات العملية للعصر الذى يعيش فيه الفيلسوف. . فمثلا هيجل فى فلسفة الحق بسبب ذيوع العمل الرأسمالى ، يحدد الحق ولكن ليس بشكل تام ، فالحق هو الحرية ، التى تموضع ذاتها بطريقة مباشرة فى الملكية الخاصة. فالحق علاقة ملكية، فالفكرة الفلسفية التى يقيمها هيجل بوصفها خطابه الفلسفى العملى ، هى تموضع أولى للإرادة الحرة فى الملكية الخاصة التى هى الأساس للرأسمالية وهى مثال فلسفته. هكذا يحدد العمل الفلسفة .

وفى مثال آخر يقول دوسيل من وجهة نظر الفعل العملى : " العالم " بأنه جملة أو كل الواقع " ، وهذا التحديد الذى يجعل الشعور بالعالم بوصفه" كل " إنما يكون فى نظر فتجنشتين شيئاً سريا مبهماً غامضاً ولهذا السبب يكون تصور العالم مجاوزاً الوقائع. إذا كان معنى العالم يقوم خارج العالم، وإذا كان ملايين الملايين الذين يصرخون " نحن جوعى " قضية بلا معنى كما يدعون، فليس هناك شيء يمكن أن يقال، وعلى المرء أن يصمت حول هذه الموضوعات. كل هذه الأفكار عند فتجنشتين هى ضد " الكلية " وضد " الجدل " وهى تلازم العمل الذى يعيد إنتاج النظام، ويكون فلسفة للسيطرة وتبريرا للقهر ، ويكون ضد اليوتوبيا . واليوتوبيا تفهم هنا بوصفها مشروع عمل التحرير للمقهورين من النظام القائم ،

وهى "مشروع موضوعى علمى إيديولوجى بشكل تام" (١٣) .

وفى إشكالية العلاقة بين التفلسف والتلاحم العضوى مع الواقع وتأمله من الداخل، يرى ريكو دوسيل أن لكل فلسفة واقعها الخاص . وأن فعل التفلسف لكى ينتج فلسفة لا يجب أن يكون تقليداً ، لأن التقليد فى الفلسفة ما يقدمه هو تاريخ الفلسفة ، وليس فلسفة. والتفلسف لكى يبدع فلسفة " يجب أن يحكى واقعا ، لا أن يحكى فلسفة " وبالتالى لايكون فعل التفلسف بمعزل عن العلاقة بالواقع ، وهى علاقة تتوقف على قدرة الفيلسوف على الارتباط العضوى بالواقع ، والوعى بأعماقه وكشف تناقضاته وإشكالياته، ومن ثم يوظف الفيلسوف إلى جانب وعيه بالواقع ، وعيه بالتاريخ ووعيه بالفكر الإنسانى فى محاولة رسم إطاره النظرى لتغيير الواقع وتجاوز تناقضاته ، فتكون أطروحته إبداعاً جديداً ، ليست بعيدة عن الواقع أو غريبة عليه بل إنها مطلب نظرى لحركة الواقع ،فلا تكون فلسفة من أجل الفلسفة بل فلسفة فى الممارسة ، من أجل تغيير الواقع. والفيلسوف هنا فى نظر ريكو دوسيل ليس مجرد فيلسوف بل فيلسوفاً ثورياً . والفيلسوف الثورى هو مطلب ضرورى مُلح فى واقع دول المحيط يجب أن يتحقق ، لذلك يجب أن يكون عطاء الفلاسفة شجاعاً لا يخشى ما يصيبه بسبب العمل الذى جعله يتحدى بشكل أساسى النظام القائم والخطاب الفلسفى المسيطر.

والإشكالية الرابعة التى يشير إليها الكتاب بإيجاز شديد ، وفيها يبدو ريكودوسيل غير غافل عن أهمية الدين عند شعوب العالم الثالث أو دول المحيط ، ويريد أن يؤسس الدين كدافع فى العمل الثورى ، ليس على أساس القراءات التقليدية للدين ، ولكن على أساس الحاجة الملّحة للقراءة الجديدة للدين التى تسمح للدين بأن يكون موجودا كعمل وممارسة- كما هو واقع المقاومة فى لبنان أو " حزب الله " بزعامة السيد " حسن نصر الله » – فالدين عمل وممارسة ، عمل بنّاء فى البنية التحتية ، وعمل بناء فى التحرير الإيجابى ، ويكون الشعب فى ثورته - كما يقول دوسيل - مدفوعا بعمق الوعى الدينى ، داخل عملية التحرير ، بالاعتماد على الدين يتأسس دافع مطلق للعمل الثورى عند المقهورين، وليس معنى هذا أن

(13) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.183-185.

ريكو دوسيل مناهض للعلمانية ذلك أن دوسيل رأيه فى وظيفة الدين أقرب إلى رأى جان جاك روسو فى الدين المدنى الذى يرى الدين طاقة حب تدفع الإنسان إلى حب الواجب والتضحية والمصلحة العامة .

ومن الأفكار الجديرة بالتأمل فى هذا الكتاب " فكرة الخلق " واعتبارها عند ريكودوسيل الأساس الميتافيزيقى للحراك التاريخى[١٤] لسببين : الأول أن الخلق فى جوهره هو اعتراف مستمر بأنه لا يوجد نظام أبدى فى السياسة أو الدين أو الجنس أو التربية أو الدساتير والمؤسسات . فالخلق يسمح لنا بأن نفهم الأشياء والنظم بوصفها اتفاقية وممكنة أى ليست ضرورية ، ومن الممكن تغييرها . ولكن ما فهمه العالم السامى (اليهودى والمسيحى والإسلامى) من الخلق كان العكس . ولما كانت أنطولوجيا العالم السامى هى أيديولوجيته ، انتهى إلى تحديد المدينة الأرضية بمدينة الله . وكان تبريره للنظام القائم فى العصر الوسيط أن الله يريد الأشياء بهذه الطريقة وبذلك دمر العالم السامى الميتافيزيقا السياسية للخلق. والسبب الثانى مرتبط أيضا بالسبب الأول ، فالخلق باعتباره ميتافيزيقا الحراك التاريخى ، هو على الضد من الفتشية ، التى ترى النظام فى كليته وأجزائه (آلياته وممارساته ومؤسساته ونظمه وقوانينه) مقدسا ، فنظرية الخلق هى إلحاد بالفتشية ، لأن الفتش نفسه مخلوق أو مصنوع بأيد إنسانية ، مخلوق من صنع مخلوق فلا شيء مقدس . ولذلك فإن الخلق هو النظرية الميتافيزيقية لثورة التحرير .

والفتشية كما يقول دوسيل هى ظاهرة التمطلق والقدسية التى يضفيها النظام على ذاته . وفتشية النظام هى موت الشعب ، وموت النظام يكون فى مقاومة الفتشية ، وتفكيك النظم المتحجرة والإلحاد بقدسيتها يكون بإثبات أن وجود الكائنات البشرية من الفقراء والمقهورين الشرط الحقيقى لإمكانية ثورة التحرير .

ويكشف ريكو دوسيل طبيعة السياسة التسلطية القاهرة التى تحكم فى دول المحيط ، ويحدد القوى الاجتماعية الفاعلة فيها ، وجميعها نظم ظالمة ،تابعة عميلة ، متحالفة

(14) Enrique Dussel . PHILOSOPHY OF LIBERATION,PP.94 ,97.

متكاتفة مع الإمبريالية العالمية ، التى ترى الشعوب المقهورة فى المحيط كالخنازير الهندية أو الأرانب الرومية يمكن قتلها. ولكن رغم التأخر الواقع فى كل مكان فى المحيط يتزايد الوعى بضرورة التحرير ، وكسر سلاسل التسلط والتبعية ، فى الواقع السياسى والثقافى والقومى . ويؤكد ريكودوسيل على ضرورة أن ترأس الطبقات المقهورة عملية التحرير حتى لا ترتد إلى التبعية للطبقة المسيطرة وتكون ثورة مضادة. كما أن التحرير فى رأيه يجب أن يجرى فى المحيط الاجتماعى والقومى للطبقات العاملة والدينية. وأن تحرير المحيط يتم فقط من داخل المحيط .لأن الإمبريالية لا يمكن أن تتنازل عن التحكم السياسى فى المحيط . لذلك فالتحرير يستلزم قوة الطبقات العامة ، من أجل تنظيم التشكيل الاجتماعى ، ويجب أن يكون التحرير واضحا على المستوى السياسى، حتى لايحدث الارتباك والخطأ فى إعادة التشكيل الاجتماعى بأيديولوجيا البرجوازية الصغيرة. و فى رأى دوسيل يسير بناء النظم السياسية والتشكيلات الاجتماعية خلال أربع لحظات بنائية تبدأ بمقاومة القهر ، وإعادة بناء تنظيمات الدولة ، وتوطيد الإبداع والإنتاج ، والتشكيل الاجتماعى ونمو القوى الإنتاجية ، والفن الحربى والمهن العسكرية. وبناء نفسية الشعب حول قيم الجلد والشجاعة والجسارة والفطنة البصيرة حتى تكون نفسية شعب التحرير ناراً لا تخمد ، وخيراً بلا حدود.

ومن الركائز الأساسية للتحرير عند ريكو دوسيل إلى جانب تحرير السياسة تحريرالاقتصاد والتربية والثقافة والجنس والطبيعة والإبداع والتصميم والإنتاج والتكنولوجيا ، فبدون اقتصاد حر عند دوسيل يصير كل شيء وهما وفوضى فالتحرير الاقتصادى يتطلب وسائط فعالة وتصميمات و تكنولوجيا وعملا علميا ، وبدون فاعلية المؤسسات الشعبية والقومية التقليدية لا يوجد تحرير اقتصادى حقيقى.

وتحرير الإنتاج يتحقق عند دوسيل بالإرادة الذاتية للشعب ، على أساس معايير قومية للتكنولوجيا والتصميم ، بصفتنا بلاداً غير متطورة . وفى رأيه أن المعيار الأول لكل تكنولوجيا أو تصميم فى بلاد المحيط هو أن يكون ضمانة أو كفالة حق العمل ، فالحاجة إلى العمل اليدوى فى المحيط أكثر كثيرا من البلاد المتطورة . فحق الحياة يتحقق ليس عن طريق ضمان ضروريات البقاء مثل الغذاء والصحة فحسب ولكن يتحقق عن طريق حماية الكرامة

الإنسانية ، عن طريق العمل الذى يكسب الشخص حق الحياة. (١٥) فتحرير الإنتاج يتحقق بالخروج على المألوف فى أساليب الإنتاج ليكون الإنتاج إبداعاً خارجاً على الوضع القائم فى الإنتاج المعتمد على المركز والنظم المسيطرة القائمة ، التى لا تعرف ماذا تعمل مع قوة العمل المعطلة، لذلك ينقد ريكو دوسيل فكرة نقل تكنولوجيات المركز إلى العالم الثالث ويرى المخاطر فى أنها تجعل المشاريع القومية تعيش بشكل طفيلى وفى حالة تبعية تامة للمركز، فيكون من الصعب تحرير الاقتصاد. كذلك فإن قوة العمل المعطلة تشكل قطاعات عريضة من الشعب؛ ولذلك فنحن بحاجة إلى تصميمات تكنولوجية تضمن حق العمل للقوى المعطلة. كما يرى أن ماتقيمه الشركات متعدية القومية من مشاريع فى بلاد المحيط ، هذه المشاريع لا تبنى اقتصاد دول المحيط لأن ما تحققه من أرباح هو" فائض قيمة " وعمل مسروق تنقله هذه الشركات إلى بلادها الأصلية فى المركز، فضلا عن سرقة خيرات دول المحيط من المواد الخام.

ويقدر ريكو دوسيل تماماً أهمية الثقافة ، وأن الإنسان غير المثقف إنسان غير منتج ، والإنسان المثقف عنصر ضرورى فى فلسفة التحرير، ويعطى دوسيل الأولوية للثقافة الشعبية على ثقافة الحضارة الحديثة بهدف تحريرالتربية ، وتحرير ثقافات الشعوب فى المحيط وتجنب الاغتراب الثقافى والتربوى ، ولذلك يرى ريكو دوسيل أن المدرسة التى تبتعد فى مناهجها عن الثقافة الشعبية فى التواصل التربوى، تجعل من ذاتها الوسيلة الوحيدة للتربية ، وتترك الشعب فى حالة اغتراب تربوى جاهل بثقافته الشعبية. ولكن تحرير الثقافة لا يعنى انغلاقها ، وإنما يعنى احترامها وتقدير قيمها الإيجابية ، وإبرازها والمحافظة على أفضل ما فيها وتنميتها وتطويرها ، حتى لا يكون البديل هو الموت الثقافى للشعب واغترابه تربوياً. ولذلك فإن الشعب بحاجة إلى الذهنية النقدية لعقل المثقف المترابط ترابطاً عضوياً بالجماهير المقهورة ، فوجوده ضرورى ليكتسب منه الشعب الذهنية النقدية ، ويكتشف المثقفون ثقافتهم الشعبية ، ويحددوا هويتهم بالشعب ، ويندمجوا فيه ويوقظوه بدلاً من ثباته ونومه العميقين. وتحرير الثقافة الشعبية هو الخطوة الأولى للثورة الثقافية فى مواجهة

(15) Enrique Dussel . PHILOSOPHY OF LIBERATION,PP. 138 ,152.

التسلط الثقافى والتربوى الذى تكرس له كل وسائل الاتصال والإعلام والتربية. ولكن عند ريكو دوسيل هذا وحده ليس كافياً لأن المطلوب هو المثقف الثورى داخل الثقافة الشعبية ، شخص لا يترك الشعب إطلاقا ، يتمسك بالاتجاه النقدى ويدعمه ، ويقود الشعب إلى إيجابياته الثقافية الخاصة . وعن الثقافة الثورية التحررية سوف تظهر ثقافة عالمية ، وتكون خياراً أغنى من الثقافة الإمبريالية (١٦).

وتحرير الجنس عند ريكو دوسيل ليس دعوة للإباحية أو إشاعة البغاء ، كلاهما موت للحب الجنسى يعارضه ريكو دوسيل ، وكلاهما انحراف عن الحق وقتل للزوجة والمرأة فى المجتمع ، وتسلط ذكورى ، كما عبر عنه فرويد. فى اعتباره الجنس ذكورية فعالة ، والأنثى مهبلا سلبيا ضروريا كموضوع للجنس. والفعل الجنسى الذكورى الأصيل لا يخلط بين الزوجة والأم ، ولا يرتكب الفحشاء فى المحارم ، ويكون الذكر فى عدم التمييز بين الزوجة والمحارم بلا ذكورية أصيلة .ويكون وجود الصراع بين الأب والابن فى مواجهة المرأة نفسها كموضوع جنسى بدون تمييز أهى أم أو زوجة. فالذكورية كالإيديولوجيا تحجب سيطرة المرأة كموضوع جنسى . ولذلك هناك علاقة بين الشهوة الجنسية والسيطرة السياسية .والدليل على ذلك أنه فى عمليات الغزو لدول المحيط ، اغتصب الغزاة النساء أيضا " فالأنا المنتصر "أنا ذكرى" ، والجنس صورة طبق الأصل للسيطرة الثقافية والاقتصادية والسياسية. والمرأة داخل دول المحيط تعانى اغتصابا ثلاثيا ، مغتصبة لكونها من الثقافة المقهورة ، والأمة المقهورة ،ولكونها عضو الطبقة الواقعة تحت القهر الخاضعة للتسلط الجنسى والسيطرة . وتحرير الجنس ليس مجرد نفى للسيطرة ، وإنما يجب أن يمارس الجنس كطقس دينى فى احترام الآخر ، وأن يكون فعلاً إنسانياً له تأثيره التربوى والسياسى ، وأن يكون التفرد وعدم التموضع هو شرط للحب الجنسى . إن المرأة المغتربة جنسياً تفسد الطفل ، والطفل الفاسد يخضع لسياسة الظلم ، فتحرير المرأة يسمح بظهور أزواج متساوين فى حق الحياة والعمل والتربية والسياسة ، ويسمح بظهور بيت جديد متحرر فيه إبداع وخصوبة وجنس

(16) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION.P. 94.

شرعي[١٧] .

إن ما يريده ريكو دوسيل " لفلسفة التحرير " إلى جانب نقد القهر وتغيير الواقع أن تصبح أسلوب حياة ، ليس في دول المحيط فقط بل أيضاً بين المقهورين من شعوب المركز . "إنها فلسفة يمكن ممارستها في كل مكان ، وفي كل المواقف ، عندما يوجد قهر أو قمع من شخص لشخص آخر ، أو أن تقهر طبقة أخرى ، أو أن توجد أقلية مقهورة بواسطة الأغلبية. واعتمادا على فضاء المقهور ينهض خطاب التحرير في موضوعات متعددة ، وقضايا مختلفة ، ولكن يبقى الخطاب من حيث منهجه ومقولاته الأساسية ، ففي الولايات المتحدة مثلا يمكن أن تنال فلسفة التحرير من القمع أو القهر الواقع على الشعب بسبب نظام الاستهلاك ، حيث نظام الربح والفائدة بدأ يتضح عدم عقلانيته بالفعل . وكما هو الحال في إسبانيا على سبيل المثال من إذلال للمرأة وتحقيرها وإهانتها ، والمعالجة الإيديولوجية التي تخفي عن العامة ما يفعله الإمبراطور بالشعوب الفقيرة في الخارج"[١٨] .

(17) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION,P. 78-89.

(18) Ibid ,P. 196.



الباب الثانى

منهج التحرير ومقولاته

الفصل الأول
الفرض الأساسى فى فلسفة التحرير ومنهجها

ويبنى ريكو دوسيل فلسفة التحرير بناء منهجياً علمياً ، يبدأ بتحديد الفرض الأساسى في فلسفة التحرير ، ولم يكن تحديده سهلاً كما يقول دوسيل ، فقد استغرق تحديده مدى زمنياً ، ولم يكن موضوع اهتمام شخص واحد فقط ، ولكن انشغل به عدد كبير من الفلاسفة ذلك إن واقعة فلسفة التحرير ، من بين كل وقائع الخبرة اليومية في العالم ، لها تفسير واحد كواقعة حبلى بخطاب جديد . ومنذ عام ١٩٦٥ تساءل الفلاسفة الأمريكان اللاتين ماذا تفعل الفلسفة فى البلاد المتخلفة ؟ وبعد فترة وجيزة أثير السؤال بطريقة أخرى هل من الممكن التفلسف بشكل موثوق به فى ثقافة التبعية والسيطرة؟ فواقعة التخلف ، وواقعة التبعية ، وواقعة الفلسفة ، ثلاث وقائع تعيد تشكيل ذاتها فى المشكلة المركزية لفلسفة التحرير ، فهل الفلسفة الأمريكية اللاتينية ممكنة ؟ وهل الفلسفة الأمريكية اللاتينية ، والأفريقية والآسيوية لعالم المحيط ممكنة ؟ لقد أجاب المفكر Peruvian Augnsto Salazar بشجاعة " لا " ، لأن الثقافة المسيطرة فى المحيط ثقافة حاملة لأيديولوجيا المسيطر ، Bondy التى يتبناها الواقعون تحت السيطرة . ولكن تزول هذه المشكلة بوجود إمكانية إيجابية توضع كفرض للعمل . وقد وضعت جماعة من مفكرى الإرجنتين الفرض الآتى :

يبدو ممكناً التفلسف فى المحيط ، فى الأمم المتخلفة ، التابعة ، للثقافات الاستعمارية المسيطرة فى الشكل الاجتماعى فى المحيط ، إذا كان فقط خطاب فلسفة المركز لا يُحاكَى ولايقلد فى المحيط .وإذا اكتشفت فقط خطابا آخر ، يكون مختلفا ، وله نقطة انطلاق أخرى ، ويجب أن يفكر فى موضوعات أو مسائل أخرى ، وأن يصل إلى نتائج متميزة عن طريق منهج مختلف . هذا هو الفرض(١٩)وتبدو أهمية هذا الفرض من طبيعة القضايا التى تنشغل بها فى فلسفة التحرير هى القضايا الواقعية بالغة الأهمية ، قضايا تتعلق بالشعوب التى هى أكثر عدداً من المقهورين ، وقضايا الموت جوعاً وإحباطا . والقضايا التكنولوجية والاقتصادية والسياسية وهذه هى القضايا الحقيقية لفلسفة التحرير . وليست كتلك المشكلات المزيفة

(19) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P 170.

التى تثيرها فلسفة اللغة والتى يظهر فلاسفتها فى نظر دوسيل وكأنهم مهرجو البلاط ، بينما يموت المقهورون ويكونون مجرد قضايا لفلسفات اللغة، وخدع الكلمات ، والتى تختزل صرخة المقهور ، لأن ألم المقهور لا يمكن أن يفسروه. والقضايا والمسائل الإيديولوجية لا تعالجها فلسفات اللغة إلا لإظهار كيف ولماذا هى قضايا إيديولوجية. ولكن قضايا فلسفة التحرير هى تفكير منبثق من واقع المحيط المقهور ، وعمل الفيلسوف يحدد الطريق إلى إقرار المشكلة ، فإذا فسرت المشكلة كضرورة أنطولوجية لقوة النظام ، يكون التفكير الفلسفى تعمية وتمويها إيديولوجياً. وإذا كانت المشكلة محددة من ضرورات الخارج على النظام المقهور، تكون مشكلة حقيقية. مشكلة نقدية ، تنهض منها فروض فلسفة التحرير وما أن يتحدد الفرض الفلسفى ، حتى تظهر اللحظة الأساسية للمنهج الفلسفى . وبتطبيق المنهج الفلسفى تكون النتيجة تثويراً للعمل والإبداع والحرية وتغييراً للواقع ، والتحول نحو تشكيل تاريخ العالم [20] .

يعالج الفصل الخامس من كتاب " فلسفة التحرير " قضية المنهج [21] تحت عنوان " من العلم إلى فلسفة التحرير " وفيه يوضح ريكو دوسيل طبيعة المنهج العلمى، والمنهج الديالكتيكى والنقدى ،ويرى أن المنهج الديالكتيكى لايناقض العلم وإن كان يتجاوزه فذلك لأنه يسال عن كل مبادئ العلم . ويأخذ ريكو دوسيل الديالكتيك بمعناه الإيجابى عند ماركس ويضيف إليه ما يسمى بلحظة الاختيار ، والاختيار أساس مقولة الخروج على الوضع القائم ، والربط بين الاختيار والخروج يجعل " المنهج الديالكتيكى عند دوسيل يتسم بالميتافيزيقية والأخلاقية ، وهذا يجعله بعيدا عن التطابق مع ماركس . ولكن ليس معنى ذلك أنه توافق مع هيجل ، لأن ريكو دوسيل يبدأ من واقعة الفقير المقهور سواء كان شخصا أو أقلية أو طبقة أو أمة وليس من الروح المطلق كما هو الحال عند هيجل. والخارجية أو الخروج كلحظة اختيار فى المنهج الديالكتيكى هى مجال وجود الحرية الإنسانية ، و الكيان الطبيعى للشخص فى خروجه على النظام القائم ، يكتسب كل تفرده وماهيته حاملاً للتاريخ والثقافة

(20) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P. 176.

(21) Ibid, P.153-178.

ويحدد ذاته بمسئولية . وهنا تبدو لمحة وجودية ، ولكن ريكو دوسيل ليس كذلك لأن الخارجية في معناها خروج على الواقع القائم وتجاوزه بالنقد العملى وتغييره. وهو أمر بعيد عن الوجودية التى قضيتها هى الذات الفرد وليس الواقع . ففى المنهج الديالكتيكى عند دوسيل يتحدث عما يسميه لحظة إختيار الخروج على النظام وهى حرية ، فالحرية هى نقطة الانطلاق والخروج ، وفى ممارسة تلك اللحظة يكون تطورالواقع العينى بواسطة النقد العملى ويكون التحرير حتمية منهج فلسفة التحرير ، منهج الديالكتيك الميتافيزيقى على حد تعبير دوسيل.

وفى اعتبار لحظة الاختيار ومقولة الخروج مقولة ميتافيزيقة للمنهج الديالكتيكى يقدم لنا ريكو دوسيل " درساً عظيماً كالذى قدمه من قبل الفيلسوف الصينى " ماو تسى تونج " للبلاد المتخلفة من العالم ، عندما " ربط الماركسية بالموقف الخاص للصين أكثر من ربط الموقف الخاص للصين بالماركسية "(٢٢).

وعند ريكو دوسيل المنهج الديالكتيكى هو نموذج الخطاب النقدى المقترح ، الذى يسأل عن كل مبادئ العلم ، والرأى النقدى فى العلم يفترض مهمة العلماء ، وهو من ثم يخالف تفسير البسطاء والشعوب البدائية. فمثلا الشمس بالنسبة للمكسيكيين القدامى ، هى " الإله " ، ولكن الشمس فى الزمن الحاضر بالنسبة للشخص العادى هى نجم يدور وتدور حوله الأرض دورانا مستمرا . أما التفسير العلمى يمكن أن يصف الشمس بطريقة أكثر دقة ، يفسر لنا كيف نحصل على الحرارة من الشمس ، وأنها لازمة عن احتراق كمية من الهيدروجين تعادل ٨٠٠٠٠٠ ثمانمائة ألف طن فى الثانية ، فالرأى النقدى يفترض مهمة العلماء .

كما يناقش دوسيل التحديدات المختلفة للمنهج العلمى قديماً وحديثاً ، ويرى أن التحديد التقليدى للمنهج العلمى بوصفه عمليات استدلال برهانية قد وجد عند

(٢٢) أ.س. كوهان ، مقدمة فى نظريات الثورة ، ترجمة فاروق عبد القادر ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩ ، ص١١١ .

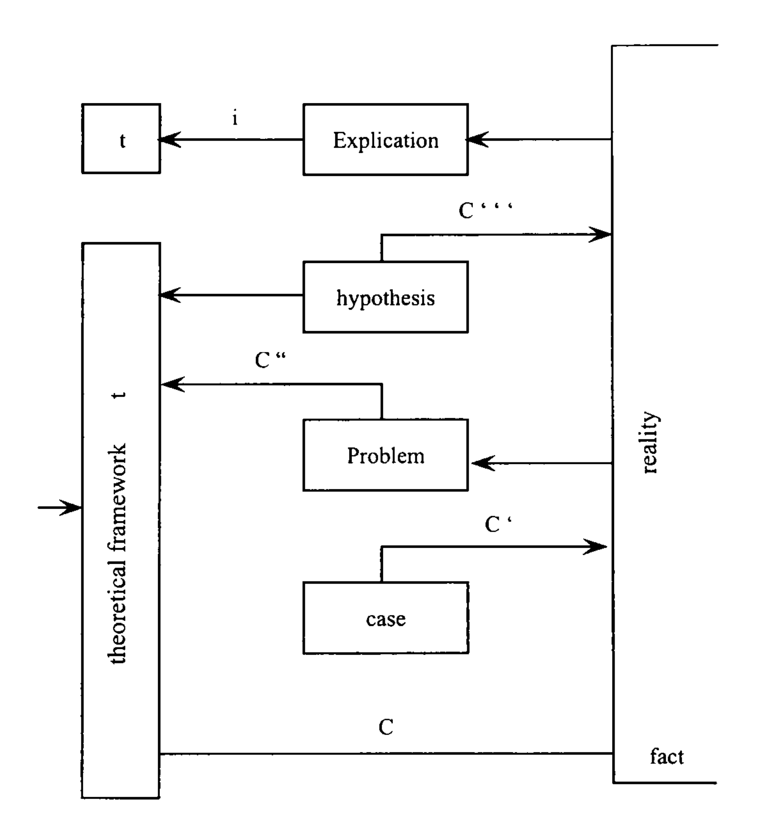
أرسطو .لكن عند كانط مهما تكن تصنيفات العلم فإن أحكامه تركيبية تتصف بالكلية والضرورة، فالمعرفة العلمية محددة بشروط هى مقولات الفهم ، والحدوس الحسية. واليوم فى وقتنا هذا ، تفسر الوقائع بواسطة النظريات وتؤدى إلى نتائج بدرجة احتمال مختلفة ، ممكن تكذيبها وفقاً لمنهج كارل بوبر. العلوم الواقعية نقطة انطلاقها هى الوقائع ، التى تتحقق وتظهر فى العالم ، كجانب حقيقى من الشيء يمكن ملاحظته بالنظر إلى كونه حقيقيًا وواقعياً. والواقعة factum وهى المقولة الأساسية للخطاب العلمى باعتباره فيزيائيا ، وحتى إنسانيا ، بالنظر إلى كون الإنسان طبيعياً وليس ثقافياً أو تاريخيا فحسب. وتبدأ العملية العلمية من الواقعة كظاهرة ، هى موضوع الخبرة والإدراك المباشر وغير المباشر. والعلم نفسه لم يهتم بالواقعة كواقعة ، ولكن يهتم بتفسير الواقعة وتعليلها. "كما يوضح ذلك الرسم التخطيطى(٢٣) عند دوسيل فى الصفحة التالية فيه يبسط دوسيل العملية العلمية . يبدأ من واقعة يرمز لها بالرمز (c) وبإطار نظرى يرمز له بالرمز (t) وتتحول الواقعة من خلال الإطار النظرى للباحث إلى حالة للدراسة يرمز لها بالرمز (c) ويجمع الباحث حولها معطيات من الواقع ، ثم يحدد المشكلة بوضوح ويرمز لها بالرمز، ومن الإحالة إلى الإطار النظرى يفترض الباحث على أساس الإطار النظرى فرضاً لتفسير المشكلة (ويرد به للواقع مرة أخرى ويرمز له بالرمز، ومن اختبار الفرض فى الواقع يضع الباحث تفسيرا للواقعة بدرجة من الاحتمال، وقد يُفضى التفسير إلى نظرية جديدة يرمزلها بالرمز (t) تتمم أوتكذب فتغذى الإطار النظرى ، ويكون إطاراً نظرياً جديداً للبحث العلمى. ولذلك فإن مبدأ العلم ، لم يعد مبدأ السببية بمعناه الكلاسيكى البسيط.

ويقول دوسيل إذا كان العلم يفسر معطيات الخبرة بواسطة النظريات ، فهناك مجال منهج آخر هو الديالكتيك. وهو منهج يستطيع تجاوز العلمية ، لأنه يسأل عن كل مبادئ العلم ،وفى صفحات قليلة فى كتاب " نقد الاقتصاد السياسى يصف ماركس المنهج الديالكتيكى كحركة جدلية بين الوجود والوعى، أو بين العينى والمجرد ، وعلى أساس الجدل يكون تطور العينى وتطور المجرد ، فالجدل هو أساس تغيير الواقع وأساس تطويره.

(23)Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P, 154.

فـالمنهـج الديالكتـيكـى يـمكـن أن يسـتـخـدم فى كـل أنـواع الخطاب : السـيـاسـى والجنسى والتربوى ، وفى العلوم الطبيعية والاقتصاد ، والتكنولوجيات وعلم الجمال . وأكثر من ذلك هو منهج للفلسفة . إنه منهج نقدى بالنظر إلى المنهج العلمى .

PIAGRAM


t
i
Explication
C ' ' '
hypothesis
C "
theoretical framework t
Problem
reality
C '
case
C
fact

ويتخذ ريكو دوسيل من الديالكتيك منهجاً لفلسفة التحرير . فالتحرير جدل النظرية والعمل ، ولا تحرير بلا عمل . و ما يعنيه بالعمل ليس العمل الإصلاحي ، لأن العمل الإصلاحي ماهو إلا إعادة تثبيت وتأكيد النظام القائم بقوة . إن العمل في فلسفة التحرير هو عمل ثورى ، ولكن فيه يبدو دوسيل أقرب إلى غاندى عن ماركس. إن فلسفة التحرير على مستوى الممارسة هي نقد النظم القائمة فى السياسة والجنس والتربية ومناهضة للفتشية ، وتحرير للطبيعة والإنتاج والاقتصاد والإبداع ، كل ذلك مشروط بالعمل فى الطبيعة. ولذلك فإن النظرية وحدها ليست كافية ، فالعمل ضرورى ، وممارسة الوعى النقدى ممارسة عملية ، هى بداية الخروج أو بداية تكوين الوجود الأساسى الخارج على النظام القائم ، فمنهج فلسفة التحرير هو منهج نقدى إيجابى للخروج الفاعل عند المقهورين من شعوب المحيط. هو إيجابية خارجية ،وتحقيق للحرية فى مجموع خارج على النظام القائم .

فالتحرير جدل النظرية والعمل ، ولحظة الاختيار " أو الخارجية " نقطة انطلاق الممارسة والعمل فى التطبيق على المقهور ، هى نفى القهر ، وإثبات خارجيته ، فالخارجية هى المقولة الأساسية لهذا المنهج ، إنها إثبات عملى ، إنه تحرير ليس على نمط الحرية الكانطية ، ولكنه حرية على المستوى الواقعى . ذلك المنهج يجعلنا نعرف كيف نقرر بشكل سياسى ونتعامل بعقلانية مع القرارات وكيف نعمل ، والقرار العملى يتطلب العين الفاحصة للموقف الواقعى ، والاستخدام الماهر للذاكرة التاريخية ، والخبرات الماضية المماثلة ، ووعياً بالعلوم الإنسانية ، ونظاماً من المعرفة يسمح باكتشاف الأشياء الواقعية والمعانى العملية ، والوضوح الذهنى ، والاستعداد للتنبؤ بما هو ضرورى للمستقبل ، و حرصاً لا يهمل التفاصيل ، والاحتراس فى كيفية التشكك . وبهذه الشروط يستطيع الفرد اختيار الوسائل التكتيكية للتنفيذ ، فالقرار هو هكذا حكم مطلوب عملياً . وبعد صنع القرارات يكون تنفيذها العملى الفعَّال هو الذى يصنع واقعاً ، ذلك الواقع إما أن يثبت عن طريق تعزيز النظام بقوة ، أو ببناء نظام جديد ، وفى الحالة الأخيرة ، يكون العمل تحريراً وثورة.

وتبنى المنهج الديالكتيكى مطلوب للعمل الذى يقوم به الثورى من أجل المقهورين . ولايكون العمل على جزء دون جزء من أجزاء النظام القائم ، إنه يتصدى لمجموع النظام فى كليته .

لذلك فإن المنهج الديالكتيكي مطلوب كمنهج يسمح باكتشاف معنى الأجزاء والأدوار الوظيفية لنظام ما ، ويتجنب مشكلة الوضعية المنطقية ، والوظيفية الاجتماعية ، فلا يتوقف عند الجزء شأن أصحاب " مبدأ التحقيق التجريبي " . لذلك فإن فلسفة التحرير تعطي أهمية خاصة للتحليل الديالكتيكي في ماهيته ومعناه التي تتوقف على الحركة العقلية التي تمر من الجزء إلى الكل ومن الكل إلى كل أكثر اتساعا يتضمنه. وإمكانية حركة العقل لا ترتكز على نفي النفي فقط في مجموع لحظة النفي ، وإنما يكون الإيجاب والإثبات في الخروج او الخارجية كمقولة أكثر ضرورة عند المقهور ، فهي أصل تام للتحرير ، فالمنهج الجدلي يعطي الإمكانية التامة لمشروع تحرير الذات المقهورة ، أي تحرير الآخر الخارج بوصفه مختلفاً داخل الكل القائم المسيطر. والآخر أصل الإبداع والإنتاج ، والتحرير السياسي والاقتصادي والثورات الاجتماعية ، والتحرير الجنسي والتربوي للشعب ، فالآخر الخارج وجود قادر على تجاوز النظام القاهر القائم (٢٤) .

ويقول ريكو دوسيل إذا كان فرد ما لا يفهم هذا المنهج الجدلي عليه أن يلزم الصمت أمام الاغتيالات والقتل ، النهب ، والتسلط ، وصرخات ملايين الملايين ، يصرخ كل فرد منهم "إني جائع" هل هذه قضايا خالية من المعنى ؟ كما يزعم الوضعيون المناطقة . إن أولئك الذين يعتقدون أنها بلا معنى يجب أن يتوقفوا عن الأكل ، حتى يمكن أن يشعروا بجسدهم الجريح الجائع ، الذي لا يملك واقعا بسبب أنه موجود خارج على النظام القائم.

هل معنى هذا أن الخطاب العلمي المنهجي يمكن أن يكون إيديولوجيا؟ أجاب ريكو دوسيل " نعم " ، ويقول : " إن ثقافة المركز قد عودتنا أن نقابل بين الإيديولوجيا والعلم. وحيث يوجد علم لا توجد إيديولوجيا ، مع أن هذا الاستبعاد هو ذاته إيديولوجيا. فالخطاب العلمي المنهجي النظري يمكن أن يكون إيديولوجيا ، ونقطة انطلاق مشروع الذات المستقبلي . فالمناهج الديالكتيكية ، والعملية والإبداعية ، جميعها يمكن أن تكون إيديولوجيا. ونحن نرى في موقف كل فعل إنساني (نظري ، وعملي ، وإبداعي ومنهجي)

(24) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.191.

ومنتجاته من (الأفكار ، والكلمات ، والإشارات ، والصور ، والقرارات) وكل ما يمكن أن يكون إيديولوجيا. وكل وسيط أو توسط كامل المعنى والدلالة هو إيديولوجيا عندما يخفى ويبرر السيطرة العملية من شخص على الآخر (على المستوى السياسى ، والجنسى ، والتربوى) ، معنى هذا أن كل نظرية ، أو معنى نظرى ، كل ممارسة أو معنى عملى ، كل إبداع أو معنى إبداعى ، يخدم فى إخفاء السيطرة والتسلط يكون إيديولوجيا. هكذا العلم والممارسة والتكنولوجيا ، والفن ، والتصميم ، وكل ما يمكن أن يكون إيديولوجيا. لذلك نحن بحاجة إلى ألفاظ جديدة مثل (العلمية scientism والتكنولوجية technologism، والاستاطيقية esthecticism والسياسية politicism، والجنسية eroticism والتربوية pedagogicism للتعبير عن الموقف الإيديولوجي ونتائجه. الإيديولوجيا هى مجموعة العبارات الدالة ، تخفى السيطرة ، وعندما تكون العبارات منهجية وعلمية تكون أشد إيديولوجية. ووظيفة الإيديولوجيا كتبرير لأعمال السيطرة عندما تكون علمية تكون أكثر إيديولوجية ،فمثلا العلم عندما يتجرد أو ينفصل عن شرطه الاجتماعى والاقتصادى ، وشرطه السياسى الديالكتيكى . وعندما ينسى أن معادلاته الرياضية يمكن أن تساعد الجندى على إصابة الهدف فى فيتنام بالقنابل الحارقة (ولا ينصت إلى مطالب المقهور) فالعلم يصبح علمية scientism، ويظن أنه كائن لديه استقلالية فى مسائله ومباحثه وضرورات خطابه العلمى، وأنه يمكن أن يحاكى فى كل بلاد العالم كعلم مجرد ، غير ملوث ، ووسيط محايد» (٢٥) .

ولذلك يقدر دوسيل ما قام به أوسكار Oscar Varsavsky وأورلاندو Orlando Fals Borda من فضح مخاطر العلمية scientism، بينما سقط ألتوسير فى أخطاء لعدم اكتشافه المعنى الإيديولوجى ، فى علم المركز. إن العلم والتكنولوجيا ضروريان لعملية تحرير أمم المحيط وطبقاته العامة ، وأسوأ أعداء الذكاء والتطور هم العلماء المزيفون الذين من المفترض أنهم ينقلون علوماً غير ملوثة ، وكذلك التكنولوجيون المتورطون الذين يرون ضرورة استيراد التكنولوجيا ، ومعها يجلبون مشروعها المستقبلى practico، والاقتصادى ، والمعيار

(25) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATIONP. 167.

الإبداعى، الذى يغذى ويعزز المذهب الاستعمارى فى عالم المحيط. وعلى النقيض فالمطلوب هو إعادة تصميم وإبداع بمعيار يكون عمليا ، وإبداعيا وقوميا وعاما وشعبيا (٢٦).

الإيديولوجيات المنهجية تبرر بشكل علمى ممارسة السيطرة ، والعلماء الذين لم ينجحوا فى أن يربطوا بالفعل علمهم بشروط سياسية فعالة وديالكتيكية ليكتشفوا الاستقلال النسبى للعلم. العلماء الذين لا يعرفون كيف يسمعون بوضوح للمطالب التى يدفع بها المقهورون ضد النظام يكونون علماء مزيفين يمارسون العلم لإخفاء وتبرير السيطرة ، التى يمارسها المركز والطبقات التابعة له الطاغية والمسيطرة فى دول المحيط بشعوبه المقهورة.

إن العلماء الذين لديهم وعى أخلاقى وسياسى ، ويدركون مسئولياتهم عن أفعالهم ، ويجنبهم وعيهم النقدى أن يكونوا علماء مزيفين ، ولكن باعتبار أن موضوع علمهم هو الموجودات الطبيعية وليس الموجودات الإنسانية،لا يشكل علمهم علما نقديا بالمعنى الدقيق. كما فى المناهج العملية فى (السياسة) وفى الإبداع (التكنولوجى) وفى (العلوم الإنسانية) وبشكل خاص فى الفلسفة ذاتها نجد النقد حقيقة جوهرية بالنسبة لموضوع المنهج الدقيق ، لأنه يتعامل مع الموجودات الإنسانية . ونقد النظم المستقرة القائمة بوصفها مطلقة، ومناهجها الإيديولوجية التى تُغرب العقل والذكاء ، وتكون وسيطا للسيطرة والتسلط .فتكون الميكيافيلية السياسية ، والفاشية ، والمحاكاة التكنولوجية ، والعلم المزيف للوظيفة الاجتماعية التى بها يستقر النظام بوصفه مطلقا ، ويشكل إيديولوجيا السيطرة والتسلط ، وعلى الضد من علم الوظيفية الاجتماعية هذا نجد علم الاقتصاد الاجتماعى مثل الذى عند سمير أمين . أو علم اجتماع التحرير المقترح عند فالس بوردا Fals Borda، وسيكولوجيا مثل الذى عند فرانتز فانون Frantz Fanon ، التى توظف وتطبق مبادئ مختلفة من أجل أن تدرس الأمراض المنتشرة فى الأقاليم ، أو الطبقات الشعبية المقهورة (٢٧) .

والتاريخ الذى يصف العملية التى فيها يكون الفقير فعَّالاً ، يتضمن علم السياسة الذى

(26) Ibid, P.168

(27) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION,P169.

يعرى أو يكشف الدولة الإمبريالية .. كما يشير إلى التكنولوجيا والتصميم، ومعايير التحرير الصناعى القومى ، ضد التكنولوجيات العالمية والتعديات القومية التى تبحث عن أقصى فائدة بالنسبة للمنتج ، وأقصى رأسمال وتكنولوجيا من أجل أن تقلل إلى أدنى حد استخدام العمل أو العمال ، كما تدمر بشكل عدوانى المصادر الطبيعية التى لا يمكن إعادة تجديدها .

فالعلم النقدى علم موثوق به مؤهل للشروع فى تشكيل " خارجية " الطبقات الشعبية العامة على المركز المهيمن ونظم الداخل العميلة .

الفصل الثانى
الوعى بالتاريخ وفلسفة التحرير

ليس ما يبحث عنه ريكو دوسيل ، فى الفصل الأول من كتاب " فلسفة التحرير" المعنون بـ" التاريخ " ، مجرد التأكيد على دور الجماهير الشعبية فى صناعة التاريخ ، ولا على نفى دور الأفراد والأبطال والزعماء والعلماء فى حركة التاريخ . وليس هو أيضا باحثا عن تصنيفات للجذور المعرفية أساس هذه النظرية أو تلك ، وهل هى مثالية ترى الجماهير سلبية عاجزة عن القيام بدور فى التاريخ ، أو مادية علمية ترد الدور الحاسم فى تطور التاريخ إلى الجماهير الشعبية ، وبعملها الإنتاجى والإبداعى تكون القوة الفاعلة فى صناعة التاريخ .

يربط ريكو دوسيل فى الفصل الخاص "بالتاريخ " بين الوعى بالتاريخ والفلسفة من جانب وعلاقتهما بالجغرافيا السياسية من جانب آخر . وما يفضى إليه هذا الوعى أمران : الأمر الأول أن القوة هى طبيعة النظام المتحكم فى العالم ، والأمر الثانى هو كشف مسار القوة كوجود مطلق يتحكم فى العالم وانتقاله من مكان إلى آخر عبر التاريخ . ولذلك يكشف الوعى بالتاريخ علاقة الفلسفة بالجغرافيا السياسية ، ودور الفلسفة فى تبرير سياسة النظام المالك للقوة المتحكم فى العالم .

معنى هذا أن الوعى بالتاريخ والفلسفة والعلاقة بالجغرافيا السياسية يساعد فى تحديد الأصل الإيديولوجى والتاريخى الذى تفكر من خلاله فلسفة التحرير فى اهتمامها بالوضع العالمى للشعوب المقهورة وتحريرها من نظام القوة بوجوده المطلق المتحكم فيها .

لذلك يقول دوسيل ، إن تكشف فلسفة التحرير ، يقوم أساساً فى الوعى بالتاريخ وهذا الوعى يرسى مشروعية مطلب التحرير أو فلسفة التحرير . ويرى دوسيل أن التاريخ من هيراقليطس (ق.م) حتى هنرى كيسنجر فى القرن العشرين يؤكد أن " الحرب هى منبع كل شىء " ومن ثم منبع النظام المتحكم فى العالم بقوة السلاح ، والقوة والسلاح هى طبيعة

النظام المتحكم فى العالم أى أننا فى حرب ، حرب باردة لمن يشنها ، وحرب ساخنة لمن يعانيها"(٢٨) .

" وميدان الحرب ليس فضاء فراغيا مجردا ، فالفضاءات المجردة غير متصارعة .ولكن ميدان الحرب هو فضاء مركز العالم ، إنه فضاء داخل أفق أنطولوجى ، إنه فضاء عضوى ووعى ذاتى ، لكنه لا يتحمل تناقضات ، لأنه حالة إمبريالية تسلطية ، إنه الفضاء السياسى ، الذى يشتمل كل الفضاءات الوجودية الأخرى داخل النسق الاقتصادى ، الذى تمارس فيه القوة مرادفة للتحكم الحربى"(٢٩) .

لذلك يبحث دوسيل عن الفضاء الجيوسياسى عبر التاريخ ، وفيه يميز بين " المركز " و"المحيط " ويرى أنه فى فضاء مركز العالم ولدت الفلسفة عبر التاريخ كتفكير أنطولوجى يعبر عن الوجود المطلق للمركز الحاكم المتسلط ، كأيديولوجيا للمركز ، ولو رجعنا إلى تاريخ الفلسفة الكلاسيكية فى كل العصور فى المراكز المختلفة التى سيطرت لوجدنا أن الفلسفة تتم أقصى غاية نظرية للاضطهاد العملى الواقع فى المحيطات الخارجية. إنها تبرر التسلط العملى لمركز السيطرة الإيديولوجية . وانطلاق دوسيل من التمييز بين " المركز والمحيط " جعله يرى إمكانية تطور شكل أساسى للفلسفة فى المحيط المقهور هى فلسفة التحرير ، ومن خلالها يكون التفكير فى التحرير على اتساع وضع شعوب الميحط .

وعند ريكو دوسيل لا يكون ثمة إمكانية للفلسفة أوالتفلسف بعيداً عن الواقع ، لأن الفلسفة عندما تكون بالفعل فلسفة لاتروى لنا فلسفة وإنما تروى واقعاً(٣٠) ، ولأن كل فلسفة بشكل عام فى الغرب أو فى الشرق فى الماضى أو فى الحاضر مستغرقة فى التفكير والتأمل فى واقعها الخاص ومنطلقة منه ، وعلى هذا فإن الفلسفة التى تنبثق فى المحيط ، تفعل ذلك استجابة لواقع المحيط ذاته وحاجته إلى التحرير . ولذلك يرى دوسيل أن التفكير النقدى الذى يظهر فى المحيط ، عندما يوجه ذاته نحو المركز يكون موته كفلسفة نقدية .

(28) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P 1.

(29) Ibid ,P, P.3.

(30) Ibid ,P.3 .

ويعلل دوسيل ذلك بأن فكر المحيط الذى يلجأ إلى المركز ، ينتهى إلى التفكير بأن المركز هو الواقع ، وخارج حدود المركز لا وجود لشيء ، ولا وجود لمعنى ، لاعتقاده أن المركز هو الوجود المطلق ، هو الثقافة ، هو عالم الإنسان ، هو التقدم ، هو الحضارة . ولكن الذين يمعنون التفكير فى واقع المحيط يجب أن تكون فلسفتهم وعملهم شيئاً واحداً هو تحرير المحيط من المركز .

ويعبر تفكير المركز عن الوجود المطلق ، والوجود المطلق أساس الإيديولوجيا فيه ، لذلك فإن فلسفة المركز هى فلسفة أنطولوجية أيديولوجية . ودليل ريكو فى ذلك أن العصر الذى فيه كان اليونانيون هم مركز العالم ، نجد بارمنيدس يعرّف الفلسفة بوصفها" أنطولوجيا فيقول "الوجود موجود ، وما ليس وجوداً غير موجود " ماذا يكون الوجود إذا لم يكن العالم الذى نعيش فيه ، وتحكمه جيوشنا ، فالوجود متطابق مع العالم ، إنه مثل الضوء الذى يُنير ولا يُرى فالوجود غير مرئى ، بينما الذى يُنار هو شيء هو أدوات وآلات ، فالوجود المطلق عند اليونان ، هو ضوء الثقافة اليونانية ، ويتسع الوجود بقدر اتساع حدود الهيلينية ، فوق الأفق الذى هو ليس وجودا مطلقا لأنه غير متحضر كالدول المحيطة للمركز من أوروبا وآسيا فى ذلك العصر ، هذا هو معنى الأنطولوجيا الموجود فى التفكير السياسى عند أفلاطون وأرسطو ، وأبيقور والرواقية ."

ويعتبر هيراقليطس " الوجود المطلق بوصفه " اللوجوس " سور المدينة المدافع عنها ضد البرابرة . كما أن الإسكندر المواطن العالمى الرومانى ، أربك المدينة بالنظام الكونى ، وكانت المدينة الأغريقية الرومانية ذاتها محددة بالطبيعة ، فأكدت الأنطولوجيا أن الوجود والمقدس والسياسى والأبدى شيء واحد بعينه ، هو المركز والقوة والسيطرة ، على المستعمرات والثقافات والعبيد والملونين ، من أجل أن يكون المركز لا أن يكون المحيط . فالفلسفات الإغريقية والرومانية بررت سيطرة المركز فى المحيط ، فمن السهل أن نفهم قول أرسطو العبد عبد بالطبيعة ، وتسليم الأبيقورية والرواقية بكل مواطنى الإمبراطورية ، وتأكيد الضمير الخير فى كل أعضائها ، وتقديس الإمبراطور ومذهب العالمية"[٣١] .

(31)Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.5-6.

وفي منطقة المتوسط ، كان البدو من الصحراء العربية رعاة الأغنام ولم يعرف البدو الوجود المطلق بوصفه نور الثقافة شأن اليونان ، ولكن عرفوه بوصفه قرابة وكرم الضيافة. ويوم أن كان للبدو ممالك الساميين والآشوريين والبابليين ، ويوم أن رحلوا إلى مصر وتحرروا مع موسى ، وكان الموسيون ، أصل رؤية العالم، قادرين لقرون عن الدفاع عن فلسفة الخلق ، والميتافيزيقا النظرية ، التى تبرر الثورات العملية والسياسية للعبيد والمقهورين ، فى اسطنبول فى القرن الرابع ، وفى روما فى القرن السادس، وفى بغداد فى القرن التاسع ، وفى قرطبة فى القرن العاشر ، وفى العالم السامى اليهودى والمسيحى والإسلامى ، كانت أنطولوجيته إيديولوجيته الأساسية ، ولكنه انتهى إلى تحديد هوية الوجود المطلق بالنظام الحاكم ، وتحديد المدينة الأرضية بمدينة الله ،(فى العصور الوسطى ، وعصور الخلفاء). فالخلق "الذى سمح بفهم الأشياء والنظم والمملكات بوصفها اتفاقية وممكنة (أى ليست ضرورية) ومن الممكن تغييرها ، ينتهى إلى تبرير نظام منطقة المتوسط فى العصر الوسيط وأن الله يريد الأشياء بهذه الطريقة . فالإيديولوجيا التى هدمت الميتافيزيقا السياسية للخلق، كانت بداية نهايتها هى الثورة الأوروبية المركزية الحديثة"(٣٢).

يبدأ العصر الحديث عند انتهاء عصر الحضارة التى كان فيها العرب شأن غيرهم من الحضارات مركز تاريخ العالم. وكانت الحروب الصليبية أولى محاولات التوسع الأوروبى ، ومع بداية القرن الرابع بدأ تحكم الإسبان والبرتغال فى شمال الأطلنطى ، ليكونوا فى نهاية القرن الخامس عشر مركز تاريخ العالم. وفى القرن السادس عشر تكتشف إسبانيا الباسفيك من الغرب وتفعل روسيا نفس الشيء من الشرق ، فى الوقت الذى انغلق العالم العربى وفقد مركزيته ، التى مارسها ما يقرب من ألف سنة.

ومهد الإسبان والبرتغال الطريق إلى الإمبراطورية البريطانية. وأصبحت أوروبا هى المركز . مركزية اكتسبت بالسيف والقوة ، واعتبرت أوروبا ذاتها " الأنا النموذج " ، فالأنا الأوروبى ، يقهر ويغزو المكسيك وبيرو وكل أمريكا ، ويستعبد الأفارقة ، ويبيعهم ، ومن أجل الوصول إلى الذهب والفضة فى أمريكا يكون موت الهنود السكان الأصليين فى

(32) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.6.

أمريكا فى المناجم فى أعماق الأرض. فالأنا الأوروبى " أنا قاهر " فى حروب الهند والصين، وعار فى حرب الأفيون. فالأنا الديكارتى، والجوهر الأوحد عند سبينوزا، والروح المطلق عند هيجل، إمبراطوريات المركز: إنجلترا وفرنسا كقوى استعمارية، وألمانيا النازية، وأخيرا الولايات المتحدة الأمريكية بوكالتها الاستخباراتية المركزية. ماذا تكون فلسفة نيتشه إذا لم تكن تبريراً للمحارب والقاهر والمنتصر؟ ماذا تكون الفينومينولوجيا أو تكون الوجودية؟ إذا لم تكن وصفا " للأنا " الذى يغزو العالم، ويكون عالمه الخاص أو وجوده الخاص. ماذا تكون المدارس النقدية؟ وتلك التى تبحث عن اليوتوبيا. ماهى إلا تأكيد المركز كإمكانية مستقبلية، ماذا تكون البنائية سوى إثبات للكل أو المجموع بلا حلول اقتصادية أو سياسية أو تحرر حقيقى؟ (٣٣). والقول إن " الله قد مات " معناه أن أوربا قد ماتت، لأن أوربا ألهت ذاتها، فى النهاية يموت المعبود، كما ستموت الولايات المتحدة بقدر اتساعها، وموت المعبود فى نظر دوسيل مهم فمعه يبدأ كل نقد بنقد الدين (نقد المعبود)، لذلك يكون التحرير ممكناً عندما يملك الفرد وتملك الشعوب فى المحيط الشجاعة فى أن تكون ملحدة بإمبراطورية المركز المسيطر على المحيط فتكون بداية تحرير المحيط من المعبود القاهر أو الأنا القاهر.

وفى رأى دوسيل أن الأنا القاهر هو الأساس العملى للأنا أفكر وسابق عليه، وقد أقحم المركز نفسه على المحيط لأكثر من خمسة قرون، وفى هذا المدى الزمنى تبدو أهمية الجغرافيا السياسية للمركز، كما نلمح عملية التحرير تنمو عند شعوب المحيط.

إن فلسفة التحرير هى فلسفة حديثة، أولى خطواتها نقد القهر، وترجع مقدماتها إلى القرن السادس عشر حيث كتب المفكر Bartolome delas Casas مشيرا إلى طريقتين اعتاد الأوروبيون استخدامهما فى السيطرة على المحيط، الطريقة الأولى: الظلم والوحشية والدم والحروب العاتية، وقتل الرجال والشباب، حتى لا يبقى على قيد الحياة غير الأطفال والنساء. بينما الطريقة الأخرى: أن يبقى النساء والأطفال فى حياة الكبت والعنف والعبودية. وتعيش النساء للتسرى (تسلط جنسى) و يتعلم الأطفال الثقافة الأوروبية فتكون السيطرة التربوية والاغتراب الثقافى. وهكذا باسم الإله الجديد من الذهب والفضة

(33) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P 8.

والاسترليني والدولار ، إله الميركانتلية ، إله الإمبريالية الاقتصادية ، نجد ملايين الملايين من الكائنات الإنسانية في المحيط وأكثر قبائل المكسيك القديمة ، ضحوا بإلاههم عن رعب من الأوروبيين المتحضرين ، والتفكير الأوربي الديني[٣٤].

ويسمي ريكو دوسيل فلسفة الاستعمار فلسفة " الميركانتالية[٣٥] " ،تلك التي نشرها في أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا مع بداية القرن السادس عشر ،وكانت روح التكرار والمحاكاة المجردة سائدة منتشرة في المحيط . وكانت الفلسفات السائدة في المستعمرات الإسبانية أغلبها دراسات إكليريكية روحانية . وبالرغم من ذلك في نظر دوسيل كانت المدرسة اللاهوتية أو الكلامية الجديدة في إسبانيا تشكل إلى حد ما إبداعاً جزئياً . وفي القرن الثامن عشر عمل البرنامج التربوي للجزويت على هداية الهنود الحمر إلى المسيحية ، والموقف الأشد شهرة في باراجوي أدى إلى تقدم هام في الفلسفة والفيزياء والرياضيات والسياسة ، ومع ذلك لم تذهب إطلاقا إلى أبعد من المحاكاة للمركز الأوروبي المسيطر .

وفي القرن الثامن عشر بدأت شعوب المحيط في أمريكا الشمالية واللاتينية حروب التحرير ضد بريطانيا ، وفرنسا وإسبانيا والبرتغال ، أي ضد المركز الأوروبي . استمرت حرب التحرير القومي في أمريكا من ١٨١٠ إلى ١٨٩٨ ، ومن تحرر الأرجنتين وبيرو إلى تحرر المكسيك ، وكذلك تحرر الكاريبي ، فقد أشعل واشنطون ، وبوليفار ، وسان مارتن فكر التحرير . وقد أصبح فكرهم فيما بعد فلسفة صريحة واضحة ، وكان للتحرير اعتباره عند بنتام ، في نهاية القرن الثامن عشر ، وأبدى هيجل رأيه في كتابه " فلسفة الحق " حين قال "

---

(34) Ibid ,P.9.

(٣٥) الميركانتالية ، اتجاه في الاقتصاد السياسي البرجوازي ، والنظام الاقتصادي للدولة أثناء عصر التراكم الأول لرأس المال في الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ،التي تعكس مصالح رأس المال التجاري عندما كان مرتبطا برأس المال الصناعي . ويعتقد الميركانتاليون أن الربح مخلوق في مجال التدوير ، والنقود هي ثروة الأمم . لذلك يعمل نظام الميركانتالية على جلب الذهب والفضة بأقصى قدر إلى الأمة ، ويصر الميركانتليون الأوائل (استافورد وآخرون) على أن كل هجرة للعملة من البلد إلى الخارج محرمة . وهدفهم هو تراكم العملة داخل البلد عن طريق تصدير السلع للأسواق الأجنبية . (قاموس الاقتصاد السياسي ،دار التقدم موسكو ١٩٨٥ ص ٢٢١) .

تحرر المستعمرات أكثر فائدة لإنجلترا من إبقائهم تابعين "وتعلمت الإمبراطورية الإنجليزية سحب جيوشها وموظفيها من المستعمرات . ولم يكن تأثير أفعال الأبطال المحررين خيالا ، وعنهم تشرب مفكرو الحاضر الشوق والحنين إلى الحرية. فالتحرير الذى تتكلم به فلسفة التحرير هو أفق مستقبلى غير مشكوك فيه فى تقدير دوسيل (٣٦).

ومع قيام الثورة الصناعية ، بدأ تراكم رأس المال يأخذ وضعه وبدأ العصر الإمبريالى الاستعمارى الثانى . فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ويعانى العالم العربى وأفريقيا السوداء والهند ، وجنوب شرق آسيا والصين من الهجوم والغزو الشديد ، مما أصبح إمبريالية اقتصادية احتكارية.

وثقافة المركز التى حلت بالمحيط ، فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا كانت موضوعاً للمحاكاة والتكرار والتقليد. ومهما تكن قد أصابت من تقدم لم تذهب إطلاقا إلى أبعد من المحاكاة. وكانت أيديولوجيا بشكل مزدوج : تخفى السيطرة من جانب ، وتبرر العمليات الإيديولوجية من جانب آخر . فضلا عن النخب الثقافية التى تكونت علمياً فى المركز ، كانت هذه بداية السيطرة الثقافية فى رأى دوسيل .

وتلقت نخب العالم الثالث تعليمها فى المركز الأوروبى : فى إكسفورد ، وباريس ، وكانت هذه المؤسسات الأوروبية مسارح علمية لإعادة التربية ، وغسل المخ. وعاد النخب يقلدون ما تعلموه فى جامعات المركز ، وينقلونه إلى جامعات أرض الوطن ، فى القاهرة ، ودكار Dakkar وسايجون Saigon وبيكنج Peking وبوينس أيرس Buenos Aires وليما Lima . إنهم يعلمون تلاميذهم " أنا أفكر " التى بواسطتها بقواهم كيانات ضعيفة فى تنظيم " إرادة القوة " الإرادة المتسلطة للمركز . لقد نسى فلاسفة دول المحيط ماضيهم ، ولم يعد العالم العربى ينظر فى فلسفته المؤرخة فى الماضى حتى القرن التاسع الميلادى ، وكانت الهند خجلة من حكمائها وعلمائها ، وكذلك الصين مع أنها أمم أنتجت كنوزاً من الفكر لأكثر من

(36) Enrique Dussel . PHILOSOPHY OF LIBERATION ,P.11

ثلاثة آلاف سنة ، ولم يثبت الماضى أو يقاوم التفكير الإمبريالى على أرض الوطن فى أشكاله التطورية الحديثة.

وأمعن الفلاسفة الأوروبيون النظر فى واقع دول المحيط . وعندما يتفرس فلاسفة المحيط فى الرؤية الأجنبية لهم ، يرون ذاتهم بوصفهم لا وجود. ويعلمون ذلك لتلاميذهم ، الذين عندما ينتهون من دراستهم يكونون مثل أساتذتهم ، يختفون من الخريطة الفلسفية ، الجيوسياسية ، ولم يعد لهم وجود ، هذه الإيديولوجيا المخزنة ما زالت تعلم فى أغلب المدارس الفلسفية فى المحيط . على يد أساتذته(٣٧).

ومع مجىء الحرب العالمية الثانية ، ظهرت قوة الولايات المتحدة الأمريكية ، وأخذت دور القيادة فى إعادة تقسيم العالم فى ١٩٤٥ . وكل من المستعمرات البريطانية والفرنسية أعيد توزيعها، ولم يدرك أبطال التحرير فى دول المحيط " مثل غاندى فى الهند ، وعبد الناصر فى مصر ، وباتريس لومومبا فى الكنغو " لم يدرك هؤلاء الزعماء أن دولهم سوف تنتقل من الأيدى البريطانية والفرنسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وأصبحت الحرية - فى رأى دوسيل يوتوبيا - مشهداً لا يمكن التنبؤ به، ورغم ذلك يقول كانت هناك كتابات سياسية دالة على التحرر القومى ضد الاستعمار، وتشتمل ضمناً على فلسفة ، ولكنها ليست فلسفة بالمعنى الدقيق وإن كانت من الناحية الفكرية أعظم ثقلا من كتابات المحيط فى العالم الحديث حتى بدأ بالفعل عمل فرانتز فانون Frantz Fanon .

ويرى دوسيل أن الاستعمار الإمبريالى الجديد هو ثمرة الثورة الصناعية الثالثة (فالثورة الأولى كانت آلية ، والثانية احتكارية ، والثالثة جهداً عالمياً متعدياً للقوميات ،تبنى المستعمرات الجديدة من الداخل. وتعدى القوميات ليس احتلالا بالجيوش أو خلق البيروقراطيات ، إنه امتلاك بشكل مباشر أو غير مباشر لمفاتيح المشاريع والمؤسسات الكبرى لإنتاج المواد الخام ، وعمليات التصنيع ، والخدمات فى دول المحيط. وتمارس الإمبريالية الجديدة التحكم السياسى على المستعمرات وجيوشها. وتتبع نظام الرغبات المهذبة وهذا

(37) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, 12-13.

يمنحها قوة من خلال وسائل الإعلام الجماهيرية ، فتسيطر على شعوب المحيط ، وعلى الأقليات الغنية الخاصة بكل شعب . فالإيديولوجيا الإمبريالية فعَّالة هنا أيضا . وحتى الفلسفة ذات الطابع التقدمي فى المركز عندما تنقل إلى المحيط وتكرر بسذاجة تصبح إيديولوجيا معرقلة للتحرير . وما أعنيه هنا ليس الفينومينولوجيا ، أو الوجودية أو الوظيفية، أو النظرية النقدية فحسب ولا العلم الذى يصبح مذهبا علميا ، ولكننى أفكر أيضاً بالماركسية التى لم تراجع مبادئها من وجهة نظر " التبعية"(٣٨) .

وقد هيمنت الإمبرالية فى الغالب على كل أفريقيا وأمريكا اللاتينية ،وجزء من آسيا، وكانت بعض الدول مثل الصين ، وفيتنام فى آسيا ، وكوبا ونيكاراجو فى أمريكا اللاتينية ، وموزمبيق وانجولا وأثيوبيا فى افريقيا ، كانت هذه الدول فيها شيء قليل من الحرية أكثر من دول المحيط الأخرى . وعرفوا كيف يستخدمون التقسيم الجيوسياسى الذى وجد فى ١٩٤٥ ، وعولوا على القوة السياسية والعسكرية التى تحكم المحيط من خارجه، فالصين كانت تعتد على الولايات المتحدة لتحميها من الاتحاد السوفيتى المجاور لها، وكوبا تعتمد على روسيا لحماية حريتها من الولايات المتحدة القريبة منها. وأريد أن أشير إلى أن العامل الجيوسياسى لا يمكن لدول المحيط أن تنساه إطلاقا ، أو أن يكون نهايتها . فالقطة يمكن أن تخطئ وتكون فريستها لعبة فقط . أما الفأر فلا يمكن أن يخطئ لأن فى خطئه يكون موته، فإذا عاش الفأر فإن ذلك بسبب ذكائه أكثر من القط (٣٩) .

وضد الوجود المطلق للمركز ظهرت فلسفة التحرير فى المحيط ، ضد القهر والتسلط والاغتراب . وتحاول فلسفة التحرير كمطلب للممارسة والعمل الثورى تجريد الوجود المطلق للمركز من أبديته المزعومة وكشف الأنطولوجيا فى المركز بوصفها إيديولوجيا ، وتعرية المذاهب وظيفية كانت أو بنائية أو علمية منطقية ورياضية التى تدعى أن العقل الناقد عقل تحليلى وليس عقلاً جدلياً .

(38) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P 14.

(39) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION,P.15.

الفصل الثالث
مقولات فلسفة التحرير

بعد أن حدد ريكو دوسيل منهج فلسفة التحرير الديالكتيك النقدى" . يقرأ من خلاله التاريخ والفكر الإنسانى ، ويرسم على أساس من الوعى التاريخى والفلسفى التقسيم الجيوسياسى للعالم بين مركز مهيمن ومحيط مقهور ، ويرى أن تحرير المحيط من القهر ، حركة جدلية بين الوعى والممارسة بهدف نقد الواقع وتغييره ، فلا تحرير بلا عمل ، وليس العمل عشوائيا فوضويا ، بل عمل توجهه مقولات أساسية وبفضلها " تستقر فلسفة التحرير ولا تهجر إطلاقا ، أرض الواقع " على حد تعبير دوسيل.

وليس المقولات عند ريكو دوسيل على شاكلة المقولات الأرسطية التى " تسمى بمقولات " الوجود " فحسب باعتبارها تعيينات مختلفة للوجود ، إلا أن أرسطو لا يدرج فيها "الحركة" ولا " التغير " ويذكر أرسطو من المقولات عشراً " الجوهر ، الكيف ، الكم ، الإضافة ، الأين ، المتى ، الفعل ، الانفعال ، الوضع ، الملك "(٤٠). يمكن وصفها فى مجموعها بأنها مقولات تستهدف تحديد ما يمكن قوله على الجوهر الأول أو على الموجود المفرد ، من أى وجهة نظر يمكن تناوله. وكذلك أيضا ليست المقولات عند دوسيل مثل المقولات الكانطية كمقولات أبستمولوجية . ولا هى كالمقولات الهيجيلية باعتبارها مقولات التطور الجدلى للفكرة المطلقة. ولكنها عند دوسيل هى مقولات عمل التحرير وتغيير الواقع القائم ،تستهدف فى المقام الأول تحرير المقهور. مقولات تجتمع عليها كثير من الخصائص فهى تتصف بأنها أخلاقية وميتافيزيقية وأنطولوجية وعملية ، وكل هذه المجالات يؤكد عليها دوسيل فى وصفه مقولات فلسفة التحرير ، كمقولة " وحدة الكل أو المجموع " totality وهى مقولة أنطولوجية. ومقولة الخروج أو الخارجية exteriorty وهى ميتافيزيقية وأخلاقية) ، ومقولة المقاربة Proximity وهى بداية الخطاب الفلسفى للتحرير ، هى الميتافيزيقا بمعناها الدقيق على حد تعبير دوسيل ، ومقولة التوسط Mediation ، ومقولة الاغتراب ، ومقولة التحرير ، وهى

(٤٠) الكسندر ماكوفلسكى . تاريخ علم المنطق ، ترجمة نديم علاء الدين وابراهيم فتحى ، الفارابى ، ١٩٨٧ ، ص ١٣٢ .

مقولة عملية ديالكتيكية ، وكل المقولات بما تحمله من مضامين ميتافيزيقية وأخلاقية وحركية أو عملية تشكل المضمون الحقيقي لفلسفة التحرير التى يصفها صاحبها بأنها إطار نظرى مطلوب فى عمل التحرير التاريخي والحقيقى ، باعتبار التحرير هو القضية المركزية فيها .

١ - مقولة المقاربة[41]

والمقاربة من " الآخر " المقهور عند دوسيل هى جذر العمل الأساسى للتحرير ، وليست هى القرب الوجودى أو الفيزيائى ، وإنما الاقتراب من الآخر بتقصير المسافة ، مع من يستطيع قبولنا أو رفضنا . ودائما الاقتراب من العدل مخاطرة ، إنه يقصر المسافة نحو الحرية . وتقصير المسافة يكون بالعمل ، فالعمل هو فعل نحو الآخر بوصفه الآخر المقهور ، إنه الفعل الذى يوجه نحو التقارب ، فالعمل هو مدخل للمقاربة . كذلك تختلف المقاربة عن تقارب الشعور والملاطفة لأن المقاربة من الآخر المقهور تختلف عن المعانقة فى الحب الواقع أو المرغوب .

وعن المقاربة التاريخية يقول دوسيل : هى الحياة داخل " إطار عمل " هو ثقافة الشعب " فالمولود داخل جماعة اجتماعية ، يربى فى المجتمع على رموز تاريخية فى حقبة تاريخية ، وفيها يظهر عالم إحساس الفرد بالمقاربة وجهاً لوجه ، وفى المقاربة تظهر بالفعل نفسية الشعب ، فالمقاربة هى الكلمة التى تعبر جيدا عن ماهية الأشخاص وإنجازاتهم ، خبرة تعبأ فى أقصى أعماق الأشخاص يتذكرونها فى طموحاتهم ومباشرة أعمالهم الأخلاقية .

يرى دوسيل فى المقاربة الزمن تزامنا ، فى مقاربة الوجه للوجه مباشرة لا توجد مسافة ، فيصبح الزمن تزامنا : زمنى هو زمنك ، هو زمننا ، والتزامن عند من يعيش المقاربة لا زمن . فى لحظة المقاربة تتقارب الأوقات المنفصلة ، وتنحل فى بهجة الوجود معاً ، فالسرمدية واللازمنية هى لحظة المقاربة ، بينما التاريخ يعنى الحقب والعصور تبدأ وتنتهى . المقاربة هى جذر العمل والممارسة ، ونقطة التحول إلى كل مسئولية نحو الآخر المقهور الخارج عن النظام .

(41) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P .16- 21.

ولذلك يميز دوسيل بين المقاربة الميتافيزيقة والمقاربات الملتبسة فيقول : المقاربات السعيدة والمقاربة الغرامية فى القبلة والجماع ، والمقاربة السياسية للقوة والمشاركة الإبداعية بين الزملاء والمقاربة التربوية من الرعاية والعناية ، هى مقاربات ملتبسة مبهمة بشكل أساسى. ولكن المقاربة الميتافيزيقية غير مبهمة تصمد بشكل واضح وصحيح أمام وجه القهر ، والفقر ، فالفرد - الخارج على كل النظم - يلوم العدالة ويثير ويحرك الرغبة للحرية ، ويطالب بالمسئولية ، فالمقاربة الصحيحة تقارب المستقبل.

مقاربة المستقبل ، واقع يتجاوز أو يفوق كل إلهام ، يشبه دائما الرغبة غير المكتملة ، أو إدراك اللامتناهى ، وتكون الرغبة للمقاربة بدون تباعد ، بدون اقتصاد ، بدون تناقضات ، بدون حرب ، إنها تكون يوتوبيا ، تلك التى تبقينا فى توتر وترقب.

كل مقاربة هى فرح أو ابتهاج ، فالبهجة تشير إلى مقولة ميتافيزيقية للمقاربة المتحققة ، إذا فهمت البهجة كتحقق للواقع ، فالرضا والاقتناع لازمان عند التقاء أو اجتماع الرغبة مع المرغوب.

المقاربة هى فرح ، هى بهجة ، هى احتفال سياسى بالزملاء ، والأصحاب ، المواطنين الذين يعبرون عن فرحهم بالمظاهرات بعد الفوز فى الانتخابات بالنسبة للشعب أو لسقوط العدو المتسلط ، أو لوليمة اتحاد العمال الذى نجح فى الإضراب. إنها تكون (أى المقاربة) فرحة تربوية للشباب المتمرد لإصلاح جامعتهم ، أو مقاربة احتفال الصغار بالرقص والموسيقى حيث يعبرون بذلك عن تميزهم وإبداعهم وأصالتهم ، إنها تكون فرحة ووليمة وطقساً دينياً للجماعة فى ابتهاج ،ودلالة نهائية وخالقة . فالمقاربة أمن ودفء ، ومباشرة الجد ، والاستغراق فى السعادة التى يستحقها الفرد.

المقاربة هى عيد الحرية ، وليست استغلالا أو ظلما وليست تدنيساً ، إنها عيد أولئك الذين هم متساوون وأحرار وعادلون ، إنها عيد أولئك الذين يتوقون أو يحنون إلى نظام المقاربة بدون ثورات مضادة أو انتكاسات.

المقاربة هى الواقع الأساسى والضرورى للشخص ، هى بداية الخطاب الفلسفى للتحرير ، هى الميتافيزيقا فى معناها الدقيق والحقيقى .

٢ - مقولة المجموع أو وحدة الكل

المقولة الثانية من مقولات فلسفة التحرير هى وحدة الكل[٤٢] أو المجموع ويفسر ريكو معنى وحدة الكل فيقول : عندما يتوجه الأشخاص إلى الأشياء والموضوعات المحسوسة . والموجودات المواجهة لنا من الكثرة غير المحدودة ، يدرك أنهم ليسوا لحظات منفصلة ، إنهم داخل نظام يشملهم ويوحدهم بشكل عضوى وأساسى ، ولا يوجد موجود واحد هنا أو هناك بشكل عرضى أو مصادفة . لكل موجود مكان فى النظام ووظيفة فى الكل ،وجميع الموجودات معا تشكل الكل ، مستوى الوجود الذى هو وجود المجموع أو وحدة الكل .

والأشياء الحسية أوالموجودات تشكل جزءاً من العالم ، وعندما نتحدث عن العالم ، فنحن نشير إلى الأفق اليومى الذى فى داخله وحدة الكل أو المجموع ، عالم منزلى وجيرانى وبلدى وطبقتى ، فالعالم هو هكذا كل ليس مجرد مجموع خارجى من الموجودات ، ولكنه كل الموجودات التى هى ذات معنى بالنسبة لى .

يظهر العالم وينكشف ببطء فى لحظة تصورنا له ، وليس غريبا قول كانط وفتجنشتين أن العالم لا يمكن أن يكون موضوعا أو واقعة للإدراك ، ولكنه الأفق الذى فى داخله كل الموجودات (التى هى موضوعات أو وقائع) تجد معانيها ، فالعالم هو الكل الأساسى .

فأنا أستخدم كلمة العالم كما فى أصلها اللاتينى لتدل على جملة موجودات الحس ، المتضمنة فى الأفق الأساسى عند الفرد (أى جملة الموجودات الحقيقية والمتخيلة والممكنة) والتى توجد فى علاقة بالجنس البشرى ولا تكون موجودات حقيقية من ذاتها فقط . فمثلا خشب المائدة هو بذاته واقع حقيقى ، أما المائدة فهى موجود فى العالم ، بدون الإنسان لاتوجد مائدة أو عالم ولكن يوجد خشب . بدون البشرية لا يوجد عالم بل يوجد " الكون " فقط .

وتشير كلمة " كون " كما فى الأصل اليونانى cosmos إلى جملة كل الأشياء الحقيقية ، سواء عرفها الإنسان أو لم يعرفها ، مثل جملة الأجسام السماوية ، والحياة والواقع من حيث

(42) Enrique Dussel . PHILOSOPHY OF LIBERATION, P. 21-29.

أنهم يشكلون شيئا ما لذاتهم.

فقبل وجود البشر كان هناك " كون " ومع ظهور البشرية فى الكون ظهر العالم بوصفه واقعا كونيا، فالعالم هو نظام كل النظم التى تعتبر البشرية أساسه كالنظام الاقتصادى، والسياسى، والاجتماعى، والرياضى، والنفسى، ونظم أخرى فرعية لنظام النظم أى العالم.

وعلى الضد من المثالية يزعم دوسيل أن للكون أسبقية حقيقية، ويزعم ضدها أيضا أن العالم مكون حقيقى عن الطبيعة الإنسانية، وأن الموجودات المتخيلة لها معنى.

العالم الذى نعيش فيه هو وحدة الكل فى الزمان والمكان، فالعالم بوصفه وحدة الكل هو حافظة للماضى، وبوصفه مكانا هو بداية عمل مشاريع أساسية خططت داخل المستقبل، فالحقبة التى نعيش فيها خارج ممكنات الحاضر تعتمد على المستقبل.

فالعالم هو واقع الأنا أو الذات بوصفها مركزا. ويكون الأشخاص ما يكونون بالفعل بسبب مشاريعهم الذاتية فى المستقبل، أى بسبب ما يحاولون تحقيقه أو إنجازه كأفراد وجماعات، رغم ذلك مشروع الذات فى المستقبل proyecto، هو إمكانية أساسية للذات. وما يكونه الفرد بالفعل هو ما يحاوله، فمشروع الذات فى المستقبل هو بلا شك يوتوبيا، مستقبل مرغوب. ويكون التحقق فقط لما هو ممكن فى الحاضر، وأن تجعل تميزا للمستقبل هو أن تجعل مكانا مميزا لما نكون نحن بالفعل. ونحن نكون ما نحن لأننا نجاهد لتحقيق التحرير مشروع المستقبل.

فمعنى أن نقول العالم. هو عند دوسيل هو أن نعلن مشروع الذات فى المستقبل، فالمستقبل الزمنى تأكيد للماضى. داخل فضاء العالم على اتساعه، يشير إلى مركز العالم، وهو عالم إنسانى، يمكن أن يتعدى على عوالم أخرى، وهذا ما جعل فلسفة التحرير تركز انتباها على ماضى العالم، وعلى فضائه، لتكشف أساس التبعية والضعف والمعاناة، ومظهر العجز والتخلف.

وفى رأى دوسيل فسر الوظيفيون الأجزاء ولم يفهموا بشكل عام أن الموجود يشكل

جزءا من كل. والكل أساس العالم هو ما أسماه المفكرون الوجود المطلق. وهو عند ماركس الواقع الاقتصادى، وعند فرويد " عضو التناسل "، وعند ريكو دوسيل هو النضال أو الجهاد الذى هو مشروع الذات مشروع المستقبل، هو الوجود المطلق هو أساس العالم، أساس النظام وهو ما يفسر الكل. ولكنه ليس واحداً عند كل سكان العالم.

العالم هو وحدة الكل مؤلف من متغيرات لا متناهية. فالمنهج الأنطولوجى يتضمن بالضبط معرفة كيف تشير أجزاء العالم باعتبارها نظما فرعية(كالنظام الاقتصادى والسياسى والجنسى والتربوى .. إلخ) بالنسبة للنظام الأساسى الذى هو الوجود المطلق أو وحدة الكل.

بدون وحدة الكل عند دوسيل أو الكل القبلى مستحيل أن نفهم معنى أى شيء عن العالم، فالعالم بوصفه " وحدة الكل " هو مفهوم، والمفهوم أساس عملية التصور.

وباعتبار المفهوم يستطيع المرء التحدث مباشرة عن فهم الماضى، أو فهم اليونانيين أو فهم أهل العصور الوسطى، لكن ليس الفهم الحقيقى فهمنا الخاص.

العالم مفهوم بشكل مستمر بوصفه عملية ديالكتيكية حركة تتجاوز بشكل مستمر حدودها، فالعالم ليس ثابتاً إطلاقاً، وليس محدوداً، إنه ذاته يشغل حيزاً تاريخياً وفراغياً. ونحن نستطيع توسيع عالمنا (على خلاف الحيوانات المحددة بغرائز النوع)، نستطيع مد أفقنا إلى الماضى ، ليس عن طريق الذاكرة ولكن بدراسة وتسجيل التقليد فى المستقبل (وتحويله إلى أغراض جديدة)، فحركة الكل أو حركة الموجودات داخل العالم هى حركة ديالكتيكية أنطولوجية.

٣ - مقولة التوسط Mediation

يرى ريكو دوسيل فى مقولة التوسط [٤٣] العالم كأفق نعيش فيه أو نظام من الأشياء والموجودات من حولنا هى ممكنات لوجودنا أو توسطات، أو وسائط ، هى وسائل نمسك بها فى نظام، لنصل إلى الهدف من نشاطنا، فى المقاربة . واقتراب الشخص من الأشياء أو

(43) Enrique Dussel . PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.29-39.

الموجودات تقارب فيزيائى ، وهو أساس الإبداع والخلق والابتكار. عندما ظهرت البشرية وتطورت إلى نوع إنسانى ، واجهت وسطا طبيعيا قاسيا ، لم تكن فيه الأشياء بعد وسائط أو ممكنات كأشياء مصنعة. وقليلا قليلا بدأت الأشياء تأخذ شكل الوسائط أو الأشياء المصنعة بواسطة الإنسان ، فالأرض البكر تحولت بواسطة الإنسان إلى مزارع، والصخور أعطت الطريق إلى الأسلحة ، والخشب أعطى الطريق إلى النار ، والكهف أعطى الطريق إلى إقامة القصور. فالعمل الذى يقوم به الشخص فى الطبيعة يُكسب الشيء معنى وقيمة ويحوله إلى توسط .ولذلك كانت المقاربة عند دوسيل هى أساس العمل أو الممارسة ، والإبداع والخلق.

ويرى دوسيل أن استخدام الإنسان للشيء يحوله إلى توسط ، وللأشياء أو للموجودات فى العالم معان معينة ، والمعنى هو تفسيرنا أو تأويلنا للظاهرة ، و يتشكل المعنى باكتشاف ماهو غير معروف ، لأن ماهو معروف من قبل لم يكن اكتشافا جديدا، فاكتشاف المعنى يشير إلى واقع الموجود ، وبنيته ودلالته على سائر الموجودات فى العالم ، فمثلا ، أنا أكتشف الماء لأننى عطشان ، وأكتشفه كتوسط ، لأن بنيته الحقيقية تكمن فى إشباع ما أشعر به من عطش، وأنا أشكل معناه كموجود يروى العطش كشراب أو مشروب ، والماء له معان أخرى ممكنة ويمكن أن أكتشف معنى الماء بطريقة أخرى ، فمثلا فى وجود " النار " أكتشف قدرة الماء على إطفاء النار فأنا أجعل الماء وسيطا لتجنب المخاطر. فالظاهرة يمكن فهم تركيبها وبنيتها ، وبنية المعنى الحقيقى تشير إلى العالم ، وبدون العالم وبدون أشخاص ، لا يوجد معنى . والمعنى لا يكون تأملا نظريا. إنه الطريقة التى فيها شيء ما صالح من أجل عمل عملى إنتاجى.

كل شيء اكتشف وتشكل معناه يمكن تقدير قيمته فى التوسط والإمكانية. فالإمكانية هى القيمة التى ينسبها المرء للشيء الموجود. فالوردة الحمراء عندما تنمو ويفوح عطرها، يقدمها المحب لمحبوبه ، فالوردة بشكل عالمى لها معنى وقيمة. والمعنى والقيمة هما إضافة فوق الشيء ، بواسطة واقعة وجوده المتكامل فى العملية الإنسانية.

والشيء يمكن أن يكون له معنى ولا يكون له قيمة ، ولكن كل الذى له قيمة له معنى، فالحرب بالنسبة للشخص المسالم لها معنى ، ولكن ليس لها قيمة.

وليس المعنى أو القيمة أصل النظم الاقتصادية والأخلاقية والجمالية. القيمة توسط أو إمكانية وكل توسط يوجه نفسه إلى مشروع الذات المستقبلى الذى يؤسسه ، ونظريات القيم نسبية بالنسبة للنظم التاريخية.

وتتميز الأشياء عن موجودات، فعندما أتحدث عن شيء أشير إلى واقع في تركيبه وبنيته بوصفه كلا ، فالشيء حقيقى لحظة فى الكون أو لحظة كونية. أما الموجود فهو متحد مندمج داخل العالم كتوسط وكإمكانية. وإذا كان الشيء موجوداً فإنه يكون له معنى ، أما الموجود الخيالى فهو مجرد موجود بلا معنى . والشيء من حيث إن له معنى ، هو موجود دائما فى العالم ، والمعنى هو بناء ذهنى للموجود فى العالم .

ويحيط الأشخاص بيئة من الموجودات كتوسط وإمكانيات . ويتحدد العمل فى مشروع الذات المستقبل ، بإدراك هذه التوسطات أو هذه الإمكانيات فى اختيار واتخاذ القرارات التى تفتح طرقا أو تغلقها.

وقدرة الذات على الاختيار أو عدم الاختيار ، هذه القدرة فى السيطرة على التوسطات هى ما يسمى حرية.

فالأشخاص يحققون ذاتهم بوسطة اختيارهم ، فاختيار إمكانية واحدة يصنع مستحيلات أخرى ، وعن طريق القرار بعد القرار يبنى الأشخاص سيرتهم الذاتية ، وتاريخهم الخاص ، فالحرية ممكنة لأنه لا يوجد توسط يحقق بشكل كامل مشروع الذات الإنسانى المستقبلى، فالإمكانيات ليست تامة ولكنها ممكنة.

أن تختار بحرية لا يعنى أنك قادر على تحديد التوسطات بشكل مطلق ، أو أنك غير مقيد بأى شرط . وإلا كانت حرية مطلقة. فالأشخاص أحرار وفى الوقت عينه اختياراتهم مشروطة ، نسبية وجزئية وليست مطلقة. وفى واقع الحرية الإنسانية تتكشف التلقائية دائما فى أننا أصحاب قراراتنا الخاصة واختياراتنا الخاصة.

رابعا : مقولة الخارجية exteriority

يعتبر ريكو دوسيل أن مقولة الخارجية [٤٤]، من أعظم المقولات المهمة لفلسفة التحرير ، التى تسمح لنا بأن نبدأ الخطاب الفلسفى من المحيط المقهور. كواقع خارج مناهض، والخارج الذى نكتشفه فى المحيط هو واقع تاريخى جديد ، والفلسفة التى تنتج عنه تكون فلسفة جديدة بالنسبة إلى شعوب المحيط.

ومعنى الخروج أو الخارجية هو الخروج على النظام القائم. وفى الخروج على النظام القائم لم يعد وجوده المطلق مطلقا ، عندما يخرج شخص أو أشخاص على النظام ، يكتشف الأشخاص أنفسهم فى خارجيتهم ، خارج النظام بوصفهم حرية . فالشخص كفرد يقاوم ، فالمواجهة هى عمل الفرد ، وإمكانات الفرد فى المقاومة مشروع الذات المستقبلى.

وليس معنى الخارجية عند دوسيل هوالمعنى نفسه عند هيجل ، لأن الخارجية أو التخارج عند هيجل محددة بالداخل بكلية الوجود المطلق أو الفكرة المطلقة، لكن الخارجية عند دوسيل تعنى الحرية عندما يكشف الأشخاص أنفسهم بوصفهم أحراراً غير مقيدين بأى نظام قائم قاهر.

وفى خروج الشخص على النظام أو الوجود المطلق القائم ، يكتشف الفرد أن له تاريخا وسيرة ذاتية وحرية ، فالأشخاص يتجاوزون الوجود المطلق. فالشخص هو حقيقة أكثر من الكلية الكونية للأجسام السماوية فى نظر دوسيل. هو كيان مستقل يتجاوز العالم والوجود، هو واقع أكثر حقيقية، عندما يقول فرد إننى جائع ، فالجائع المقهور معلول للنظام الظالم ، هذا الجائع هو سلب للنظام وفى الخروج على النظام يكون إشباع الجائع المقهور هو بشكل بنائى تغيير النظام بشكل راديكالى، فالجائع هو خارج عملى هادم مدمر ضد النظام، فمنطق الخروج هو منطق التغير.

ومصطلح " الآخر " هو المعنى الدقيق الذى به يسمى ريكو دوسيل كل خارج على النظام القائم . والخارج تاريخى وليس كونيا ، هو آخر بديل للنظام الممكن ، إنه يتجاوز النظام ذاته.

---

(44) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.39-49

يكتشف الآخر ذاته بوصفه آخر فى خارجيته ، بوصفه خارج النظام ، كالفقير تظهر معاناته ، ووجهه المتحدى " نحن جوعى " " لنا الحق أن نأكل " هذا الحق لا يناله إلا بالخروج على النظام. وهكذا عندما يخرج الفقراء على النظام الظالم يهزون أعمدته وأركانه، فالآخر الفقير فى أقصى خارجيته هو بالنسبة للنظام الظالم هو " الجحيم " الآخر هو الجحيم ، وعلى العكس بالنسبة للشخص العادل الآخر هو النظام اليوتوبى ، بدون تناقضات ، فالآخر بداية ظهور عالم جديد مميز أكثر عدلا.

ويقول دوسيل المرء الذى لديه القدرة على اكتشاف مكان الآخر الفقير ، يكون قادرا على تشخيص الأمراض فى الدولة. الآخر لا يكون آخر إلا باعتباره خارجا على النظام ، بدون الخروج لا يوجد حرية ، فواقعة الحرية ، حرية الاختيار تتكشف فى السلوك غير المشروط. فالآخر حرية غير مشروطة بالنظر إلى خروجه، وهى حرية محتقرة ومزدرية توصف بأنها جاهلة وبربرية عند أتباع النظام .

الآخر هو " لا وجود " بالنسبة للوجود المطلق للنظام . " الآخر هو العبد بالنسبة لأرسطو" ، " هو المرأة فى مجتمع الإيديولوجيا الذكورية ، هو المطوش بالنسبة لفرويد ، هو اليتيم مثل " أميل " عند روسو . ويمكن أن يقال إن الآخر هو لا شيء هو عدم ، ولكن النظم الجيدة والجديدة أتت من عدمية جديدة، فكل نظام مستقبلى ناتج من ثورة مدمرة بالمعنى الميتافيزيقى.

العقل بالمعنى الهيجيلى أو حتى بالمعنى الهيدجرى ، هو قدرة التأمل الإنسانى الذى بواسطته يكتشف الفرد ماذا تكون الموجودات وماذا يكون العالم، والنظام المتوقف عليه. فالعقل هو القدرة على فهم الأساس والاختلاف ، إنه قدرة التأمل والتفكير فى المنطقة المحكومة بالقوة العسكرية والسياسية. وما يبدو مجاوزاً للعقل هو لا عقلانى. والخارج على النظام القائم هو كذلك.

غير أن اللاعقلانية عند دوسيل تعبر عن العقلانية بشكل أسمى ، مثل الفكرة المطلقة عند هيجل ، والسوبرمان عند نيتشه ، والعرقية عند هتلر ، وطريقة الحياة

الأمريكية .واللاعقلانية أوجدت مشاريع كومبيوترية رياضية وتحليلية، ومع ذلك تتجاوز العقل.

وأكثر من ذلك اللاعقلانية وجود الخارج على النظام ، وجود الآخر ، فالآخر لا يمكن تفسيره أو تحليله أو دراسته من داخل النظام ، مثلما يمكن فعله بالأحجار والخضروات والحيوانات ، لذلك يقول دوسيل نحن نستطيع أن نفحص الصرصار ابتداء مما يظهره واقعه لنا ، أو أننا نستطيع إهماله وتجاهله ،ولم يحدث إطلاقا أن نسأله من أنت. وعلى العكس بالنسبة للإنسان ، نحن نسأل عن الاسم ، والسيرة الذاتية ، وعن الآراء عن الآخرين ، ولكن الأشخاص يستطيعون الكذب ، والكذب هو علامة خارجيتهم ، وهم يحرصون على إخفاء أسرارهم ويقبلون الموت دون كشفها.

وفى رأى دوسيل أن أى عقل لا يستطيع أن يحتوى سر الآخر كآخر إلا العقل الذى تخلله الإيمان فقط ، وفى المقاربة وجهاً لوجه شخص ما يستمع لصوت الآخر ، ويرحب به باحترام مقدس .. لم يقبل ما يكشفه الآخر بسبب وضوح مضمونه ، ولكن لأنه خلف كلمة الآخر يوجد واقع شخص ما مباشر ومكشوف ومنفتح ميتافيزيقيا .. فالعلاقة الميتافيزيقية : مقاربة ، وحى ، إيمان ، علاقة تاريخية إنسانية.

وقد نفهم الخارجية بأنها ترنسندنتالية داخلية ، فالترنسندنتالية الداخلية هى خارجية الآخر بوصفه آخر وليس بوصفه جزءاً من النظام.

والميتافيزيقا ، كما جاءت فى خطاب فلسفة التحرير ، هى معرفة كيف تمعن النظر إلى العالم من خارجية الآخر، معرفة كيف تفكر حول الوجود المطلق للنظام القائم من الخارج عليه أى من دول المحيط التى هى اليوم محكومة من المركز، الذى يمارس فلسفة السيطرة عليها (وهى فلسفة أنطولوجية ووظيفية وبنائية وتحليلية ورمزية).

فالميتافيزيقا هى أن تعرف كيف تفكر حول النظام، حول العالم ، من داخل السلب الأنطولوجى. فالرغبة فى التغيير والعدالة الحقيقية ، مثل إعصار يدمر ويشق ثغرة فى الأفق الأنطولوجى ، ويحدث تحوّلا فيه. فالميتافيزيقا تعتبر مخاطرة ، ليس فقط فى صدقها أو

الولاء لندائها واختيارها ولكن أيضا فى الدافع الذى يحرك ويحوّل ويقلب الواقع ذاته، هذا ما يقوله دوسيل.

خامسا: مقولة الاغتراب

وحديث ريكو دوسيل عن الاغتراب(٤٥) غير منشغل بتاريخ المصطلح وتجذيره، وإنما هو يتحدث مباشرة عن اغتراب شعوب المحيط المقهورة اغتراباً سياسيًا واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وتربوياً فى ظل النظم الحاكمة القائمة التابعة والعميلة للمركز المهيمن.

ويرى دوسيل أن النظام القائم يحاول تخليد ذاته فى بنائه الحاضر، ويتوسع ليضم داخل ذاته كل خارج، ولكونه جائعاً بلا نهاية، يحاول النظام تقديس ذاته إلى الأبد ويؤكد فتشيته فى تنمية لا تشبع، تأكل أمها وأطفالها، وأخواتها. إن النظام وحش على الأرض أو عملاق خرافى يقتل ويغرّب وجوهاً كثيرة باتهام أو قضية، كرب مخيف طويل، أول أيامه الأخيرة ظلم لا حصر له.

ويبدو "الآخر أو الخارج على النظام" فى عين النظام عدواً، ومنهم أيضا الحكماء والعقلاء، لأنهم يرون الأشياء غير المنظورة، يرون الخلاص يتحقق بالمعرفة، كما قال سقراط "اعرف نفسك"

وبينما يجعل أعضاء النظام من أنفسهم اختياراً من الآلهة للسيطرة، فليس الشر فى عين النظام شيئا يقترفه عضو النظام، ومن ثم لا يشعر عضو النظام بذنب السيطرة ولا بتأنيب الضمير. ولقد قال هيراقليطس "بواسطة الطبيعة يتقدم البعض بوصفهم آلهة إناس أحرار، والبعض الآخر يكونون عبيدا. قوة القدر أرادت هذا، فالشر هو الجهل بما تكون عليه الأشياء، والعقل من أجل الكثرة، وأفلوطين وهيجل يوافقان على هذا.

ويبدو "الآخر" الخارج بالنسبة للنظام مختلفا، إنه يهدد وحدة النظام ووجوده، والحكيم أوالعاقل هو المسئول عن الخطر الذى يمثله وجود الآخر أو الخارج، عدو النظام.

ولذلك يقول دوسيل الوجود المطلق للنظام نقيضه هو "الآخر"، هو "الخارج"، هو

(45) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.49-58.

الرافض للنظام. ولو اتحد مع النظام أو اندمج به لأصبح واحداً من الباقين مرحبا به، فالفرد الذى هو ضد النظام هو شخص مختلف هو آخر ،مجاوز للنظام القائم بوجوده المطلق. وأمام الآخر تستمر أعمال التزييف وانحطاط النظام ، ويحاول أبطال النظام محو الآخر. وأبطال النظام هم مثل وكالات الاستخبارات" S S" فى ألمانيا النازية ، و" C I A " فى الولايات المتحدة الأمريكية . واسعة ومسلحة بشكل قانونى ، وتشكل اتحادات متعدية القومية .

وكل ما يريده النظام الحاكم يقحمه على الفرد والمجتمع بوسائل الاتصال والإعلام ، كالسينما والتلفاز ، ومن خلال كل وسائل التلقى، ومن يقاوم إرادة النظام مصيره السجن أو النفى أو القتل.

لذلك يرى دوسيل أن جدل السيد والعبد لم يعد ممكناً ، يختفى العبد من الأفق بالموت. ويعرف المحيط كثيراً من الموتى مثل : باتريس لومومبا ، بن بركة ، أوسكار رومر Oscar Romero وإلياس فليزير جاتن Fliezer Gaeta'n وآخرين.. وتبرر أنطولوجيا المركز ما تفعله الجيوش الإمبريالية ، والقوى المركزية فى الماضى والحاضر . ماذا كانت الأبيقورية والرواقية إلا تكريس الإمبراطورية القيصرية ؟ من يكون هيجل ونيتشه وهيدجر إلا فلاسفة ظاهريات المركز الأوروبى ؟

و المجموع الخارج على النظام القائم شيء مخيف لأبطال النظام فى المركز ، وفى الماضى اعتبر أبطال النظام أنفسهم آلهة على الأرض ، والآن فى الوقت المعاصر هم آلهة الديمقراطية والحرية والتحضر يدافعون عن الوجود المطلق للمركز بشجاعة . بينما العوام والبرابرة هم الآخر والاختلاف والفوضى والماركسية ، وبكلمة واحدة "شر" .

ويعرى دوسيل تسربل أبطال النظام بالشرف والشجاعة والفضائل النتشوية . يُلقى المركز بذاته على المحيط ، على الخارج السياسى والجغرافى ، باسم الوجود المطلق للعالم الإنسانى ، والحضارة الإنسانية، يزيل ويمحو ويغير ويبدل ثقافات الشعوب وأديانهم ليوحدهم بطريقة أخرى ، و يوسع بقسوة وعنف حدود عالمه ليضم الشعوب الأخرى إلى دائرة التحكم، فمثلا إسبانيا فى سنة ٧١٨ اتسعت قواتها العسكرية إلى الحدود جنوبا فى

صراعها لتعيد الانتصار ضد العرب ، وبعد سنة ١٤٩٢ توسعت لتضم أمريكا اللاتينية، وابتلعت أمريكا اللاتينية بواسطة أكلة لحوم البشر باسم الحضارة.

وكان غزو أمريكا اللاتينية ، واستعباد أفريقيا واستعمارها ، وكذلك آسيا ، توسعا للذات الأوروبية ، واغتيالا لجموع "الآخر" في المحيط. وهذه العملية الانطولوجية الديالكتيكية للتاريخ الإنساني ذهبت ببساطة ولم تتصورها أيديولوجيا الأيديولوجيين ، حتى مع هذا تدعى الفلسفة الأوروبية المعاصرة أنها " نقد الإيديولوجيات " ، و هكذا سيطر اللغو والتكرار على كل شيء ، وعادت سرمدية الذات المركزية بصياغات اجتماعية خاصة.

إن "الآخر" مختلف له تاريخ وثقافة ، والمركز لا يدع الآخر آخر ، إنه ينكر الآخر بوصفه آخر. لذلك فإن اغتراب شعب أو فرد مفرد هو فقدان لوجوده المطلق ، عندما يرفض أن يتوحد في وجود النظام القائم ، ويرفض أن يكون أداة ، فالسيطرة كعلاقة بين مركز العالم ومحيطه ، وضعت المحيط والشعوب والأشخاص في خدمة المسيطر.

وعندما يسيطر المسيطرعلى خيرات الوطن وثمرة عمل الشعب ولا تعود ثمرة عمل الشعب إلى الشعب من عمال ونساء وأطفال يبقى وجود الشعب مغترباً ، عندما يضع المسيطر يده على ثمرة عمل المجموع ، وعندما يصبح إدعاء التملك معتاداً وقانونياً وتاريخياً فإن الاغتراب يكون حقيقيًا ومؤكداً وفعالاً مؤثراً ، إنه أسلوب غير عادل للإنتاج والملكية. وهكذا كل اغتراب تربوى وجنسي وسياسي.. إلخ يتحقق في اقتصاده الخاص وشكله الاجتماعي.

يُعامل "الآخر" كأداة ، ويحرم من كرامته كشخص وشعب رغم أنهم يشكلون قوة عمل. ولكن أبطال النظام وأتباعه وساسته يستخفون باليد العاملة وجلدها الخشن ووجها القبيح من قسوة العيش والعمل ، وعند المسيطر كل شيء ممكن من القتل والسلب والنهب، وصنع صابون بشحم البشر كما في ألمانيا النازية ، وتدريب الكلاب على اغتصاب النساء كالتعذيب في شيلي في ١٩٧٦ . سمح أتباع النظام لأنفسهم بالتعامل مع شعوب المحيط كحيوانات وليس موجودات إنسانية.

وكل أعمال السيطرة فى نظر دوسيل هى انحراف عن الحق من أجل مشروع المركز المسيطر . وبفعل السيطرة يقهرون الناس على المشاركة فى النظام ، الذى هو تغريب لهم وإجبار على تحقيق أفعال مضادة لطبيعتهم ، ومضادة لماهيتهم التاريخية ، فالسيطرة هى فعل ضاغط ، فعل قوة ، وعلى الخدم تعود الطاعة إما بالرضا وإما بالتخويف والقهر .

تتحول السيطرة إلى قمع عندما يحاول المقهورون تحرير ذاتهم من الضغط الذى يعانونه ، أو الهروب من موقف السيطرة ، فيزيد المسيطر الضغط والقهر والقمع ، وقد يكون القمع فردياً ونفسياً ، ولكنه دائما اجتماعى .وتتولى القواعد الثقافية دمجه خلال التربية ،ومثلما يكون قمع الشخص العادى ، تقمع القوى السياسية والاقتصادية أولئك الثائرين والمتمردين من خلال البوليس والقوة العسكرية . والقمع وجه مكشوف للسيطرة . ويبقى القمع مبررا بأنطولوجيا وأيديولوجيا النظام ، مقدساً كالفضيلة .

وكذلك يرى دوسيل أن القهر السيكولوجى يمارس عن طريق وسائل الاتصال والإعلام؛ لذلك يزداد العنف ، يعنف الرجل المرأة ويحتبسها فى منزله ، ويكرسها كزوجة وربة منزل . والأب يعنف طفله ويجبره على الطاعة لسلطته المسيطرة ، والأخ يعنف الأخ ويطلب منه الاحترام تحت ألم الموت " من أجل سره الخاص " عن حبه لوطنه ، الأرض ومنزله القديم .

وعندما لم يعد الخارج على النظام القائم يقبل وجود القاهر بسلام . تحقق الحرب بشكل كلى ونهائى عمل السيطرة ، كما هو حادث فى وقتنا المعاصر فى العراق وفلسطين ولبنان ، وعن طريق القهر والعنف يبدأ المسيطر " حرب الجميع " ، فالحرب هى عملية لاختزال وجود الآخر الخارج المقهور إلى لا وجود .

والنظام المسيطر الإمبريالى العميل لا يمكن أن يعضد وجود الآخرالخارج عليه ، بل يستبعده ويغربه وينفيه . فى المركز نجد شرعية الضلال والانحراف عن الحق، إلا أن الشرعية والقانون عند أخلاقى خير مثل " كانط " هى شرعية تنظيم الفعل بالقانون، فإذا نحن قبلنا مبدأ حب بلدنا والحرب من أجلها ، وقارنا بين الرجل الإنجليزى فى القرن التاسع

عشر والرجل الزنجى ، كل منهما سوف يحارب من أجل بلده. وكل من الفعلين يوضح مبدأ "الشرعية العالمية" ومع ذلك كل من الفعلين قانونى وأخلاقى عند كانط، وماذا يكون ترتيب الترتيب الهرمى للقيمة عند شيلر عدا توسطات الغرب الظمآن إلى المستقبل.

وقدس سقراط الثقافة اليونانية ، بأن جعل تلاميذه يعتقدون أن الأفكار التى يتأملونها إلهية ...وجعل روسو ظهور الثقافة البرجوازية مشروع الذات فى المستقبل ، وثقافة المركز غاية الطبيعة الإنسانية ، ومتطلباتها حقوقا طبيعية ، لذلك اعتبر روسو أن حق الملكية ضد الطبيعة ، ضد الله ، ضد الإرادة الإلهية.

باسم القوانين كانت ممارسة الفضائل بهدف تحقيق مشروع المركز، وكانت السيطرة العالمية وحقق " فرنسيس دارك " وهو القرصان بالمهنة مخرب أمريكا اللاتينية ، حقق التراكم الأول لرأس المال ، ذلك التراكم الذى يقهرنا الآن ، وأصله كان ذهب المكسيكيين وجسد العبيد السود.

سادسا: مقولة التحرير

يرى دوسيل أن التحرير[٤٦] هو الهدف الأساسى لهذا الفصل، وبعمل التحرير يتم تجاوز النظام القائم ومقاربة المقهور الخارج على النظام ، صانع قرارات الخروج والتجاوز. ليس التحرير فعلا داخل النظام القائم ، وإنما التحرير هو عمل أو ممارسة ضد النظام لهدمه ، هو نقد تام للنظام للقائم ، هو قلب لمنطق الظاهريات وخرقه والدخول إلى التعالى الميتافيزيقى ، الذى هو نقد تام للقائم ، الثابت ، المعتاد ،المتجمد ، الميت.

ويصاحب فعل التحرير الضمير الأخلاقى ، وهو يمكن أن يبهج أو يزعج أو يلوم أو يهدئ. ويشير دوسيل بالضمير الأخلاقى إلى قدرة الفرد على الإنصات لصوت "الآخر"، والفرد الذى لديه ضمير أخلاقى ، هو الذى يمكن أن يقبل فقط هذه القضية من وجهة نظر المعيار المطلق للعدل. ويكتشف فتشية النظام وشذوذه من الضرورى أن نحترم " الآخر" وندع الآخر فى تميزه واختلافه، فالآخر يكون مقدساً بالفعل فى وجود قيمة الاحترام بلا

(46) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.58-66.

حدود. فالاحترام صمت ليس كصمت الشخص الذى ليس لديه شيء ليقوله ، ولكن أولئك الذين يريدون الإنصات لكل شيء ، لأنهم لا يعرفون شيئا حول الآخر بوصفه آخر.

المسئولية نحو الآخر الخارج على النظام القائم ، هى تحمل عبء الآخر الفقير المقهور المصطدم بالنظام . فإن تكون مسئولا عن أو مع بالنظر إلى الآخر المقهور فتلك هى القضية عند دوسيل. والمسئولية عن الآخر الخارج على النظام تتقدم كل مسئولية أخرى ، إنها مسئولية نحو نظام جديد مستقبلي. والمسئولية عن الفقير المقهور الخارج عن النظام ، تستغرق ذات الفرد ، وقد تدفع به إلى المرض ، والسجن ، والموت ، فأبطال التحرير (ليس هدفهم التوسع والغزو) إنهم ضد أتباع النظام القائم ، وحياتهم خطر متعاقب ، فالمسئولية هى هكذا ، يد أسمى وقوة غير ملوثة ، حكمة واستبصار حقيقى بأبنية المجموع والمجتمع ، والأفراد الذين يخاطرون بأنفسهم من أجل المقهورين ، ومن أجل نظام جديد ، يعتبرهم النظام القائم طابوراً خامساً ، يبنى الكراهية والضغينة والفوضى ويفسد الشباب.

ويقول دوسيل يبدأ كل نظام جديد بوصفه دمارا للنظام القديم ، وذلك قانون طبيعى بيولوجى وفيزيائى. ولعل هذا ما يجعله أيضا قانوناً ثقافياً وإنسانياً وتاريخياً بالمثل.

ولا يوجد نظام قبلى أو بدوى أو ريفى أو حضرى ، ولا توجد ثقافة ، ولا نظام اقتصادى إقطاعى أو رأسمالى أو اشتراكى يمكن أن يتحول إلى نظام أفضل بدون انتهاء فاعلية النظام القديم.

وقد يكون التدمير سلبيا ولا يولد عنه شيء جديد ، كأن تغزو جماعات مسلحة مناطق لها ثقافتها. إنها تدمر ولا تترك شيئا مكانه ، إنها تدمير وإبادة وجميعها معنى سلبى للتدمير.

وعلى العكس هناك التدمير الإبداعى الإيجابى ، شيء ما يموت ولكنه شرط لإمكانية ولادة شيء ما آخر. لحظة مرور ألم واجتيازه تلك هى لحظة التحرير ، فيها احتضار النظام القديم من أجل ميلاد شيء ما خصب مثمر جديد وعدل.

ويؤكد دوسيل على أن الهدم الذى لا يكون وفقا لمبدأ موجه ، هو ليس عقلانية وإنما

يسمى فوضوية. والفوضوية لا تقيم نموذجاً ممكناً بعد التدمير عكس التحرير . فالتحرير هو حركة تتم وفق مبدأ ، هو حركة ميتافيزيقية ، تحول أنطولوجى فى سلوك الفرد ، إنه الفعل الذى يفتح ثغرة ويخترق الحائط ، ويبحث بحثا عميقا عن المستقبل . التحرير هو فعل الخارج والمقهور ، التحرير هو لحظة مزدوجة لحظة نفى النفى فى النظام القائم. واللحظة المزدوجة تمر غير مدركة فى ديالكتيك بسيط بوصفه نفى النفى ، نفى ماهو منفى بواسطة النظام (أى المقهورين) هو إثبات خارجيتهم ، هو تحريرهم.

ولقد غطى الاغتراب وجه الآخر المقهور الخارج على النظام القائم بقناع من نظام القهر كأن يحدد الآخر بوظيفة يحققها داخل النظام كأن يكون عاملاً أو موظفاً أو طبقة اجتماعية، والقناع مخيف قبيح ، وتدريجيا يُكتشف رونق الشعب وجماله ، ولكن النظرة التى تشخص هى نظرة الفرد المسئول عن تحرير الآخر المقهور ، والمطالبة بالعدل والثورة والتحرير ، فينهض الجميع:

إن ممارسة التحرير عند دوسيل هو عمل وإنتاج ، والعمل علاقة شخص بشخص ، والإنتاج علاقة شخص بالطبيعة، وفعل التحرير هو الفعل الذى يتجه إلى الآخرين (الأخ ، والأخت ، والمرأة ، والرجل ، والطفل) ولا يوجد تحرير بدون اقتصاديين ، ولا بدون تكنولوجيا متواضعة ، ولا بدون تخطيط ، ولا بدون تشكيل اجتماعى تاريخى ، ولهذا فإن عمل أو ممارسة التحرير هو عمل إنتاجى ، بواسطته ينتهى النظام القديم ، ومن خلاله أيضاً يبزغ النظام الجديد ، ويبنى نظام اجتماعى جديد أكثر عدلا، إنه التحرير.

ويرى دوسيل أن اللغة اليونانية تخلو من كلمة التحرير ، إذ ليس عند اليونان هذا النوع من الخبرة. ولكن الكلمة فى اللغة العبرية تعنى " العمل " ، وكذلك أيضا كلمة خدمة ، والخدمة فى اليونانية لم تكن مجرد عمل داخل نسق وظيفى ، بعيداً عن الإلزام القانونى. ولكن عمل التحرير هو عمل إنتاجى ، يتم من أجل تحرير الآخر ، إنه يكون نشاطا إبداعيا يستخدم الأدوات التى وضعت فى خدمة الفقراء .عمل التحرير هو إنتاج نظام جديد لبناء جديد ، هو عمل إبداعى ، خلاق ، ابتكارى.

ولذلك يؤكد دوسيل على أن السمات النفسية لشعب التحرير ،هي بالضبط سمة الإبداع والخلق الذى يظهر فى خدمة الآخر من شخص مخلص مسئول هو المحرر. نفسية شعب التحرير لم تبن حول محور الشفقة (كما هو بالنسبة لشبنهور ، ولا حول العاطفة (كما هو بالنسبة لشيلر) ، والحنو والشفقة يجعل ذات الفرد مع الفرد الآخر فى بؤس. نفسية شعب التحرير دافع أو حافز موجه للآخر أو عدالة ميتافيزيقية ، إنها حب الآخر بوصفه الآخر ،بوصفه الخارج ، حب المقهور ليس بوصفه مقهوراً بل بوصفه ذاتاً تنعم بالحرية ، ولا تكون آلة فى النظام القائم . تلك خبرة يكون فيها التناقض بين كون الفرد حرا ، وعليه تحمل المعاناة بوصفه شخصا مميزاً داخلاً فى نظام يقاسى ويعانى ألم التصدع ، فذلك هو التوجه الأول لنفسية شعب التحرير حب المقهو رللكرامة بوصفه خارجا على النظام القاهر ، وحنو المشاركة بين أبطال التحرير والمقهورين ، هى زمالة وصداقة متحررة بشكل فعّال ، تعتمد على العدالة المتحررة التى لا تخضع لكل ماهو واجب من داخل القانون والنظام المسيطر. ولكن تُجيز كل ما تستحقه كرامتهم بوصفهم آخرين خارجين على النظام ، فالعدالة المتحررة ليست هى العدالة القانونية ، أيا كانت توزيعية أو تبادلية و لكنها عدالة حقيقية ، أى عدالة تهدم وتدمر النظام القائم ، وطاعة لمخلص محل ثقة ، فطنة ميتافيزيقية ليست ميكافيلية ، فالسياسة التحررية الموثوق بها تُنضج أبطال التحرير والشعب ، ويضعون جانبا حياتهم الشخصية من أجل النظام الجديد ، وهذا هو ما يعتبره النظام القائم تهورا وحماقة. ولكنه فى الحقيقة صبر وأمل فعّال فى تحرير المقهور ، ومعرفة كيف يحافظ على ثبات دقة الرأى فى تصور الغاية الاستراتيجية . إنه أمل بطولى لشخص مثالى مثل المهاتما غاندى ، وباتريس لومومبا ، وأرنست شى جيفارا ،قاموا كرموز من أجل شباب العالم ، بدون تردد يواجهون الموت من أجل الشعب.

الشخص الذى لا يخاف الموت يكون مخيفا ، ذلك الشخص يكون حرا فى مواجهة الموت ، هو حر بالفعل من الراحة التى تعرقل بجيوشها العذبة برجوازية المجتمع الاستهلاكى. والاعتدال والعفة كسيد فوق الرغبات ، تضمن للعدل ممارسة حقه ، وتجعل من الممكن

للشجاع الجرىء أن يترك الكل فى نظام ليخدم الفقير حتى الموت ، وبدون نظام لا يوجد تحرير .

فعل التحرير فعل واسع فعل مسئول بلا مقابل ، فعل يدفع ذاته بثقة نحو المستقبل ، نحو يوتوبيا حقيقية ، نحو نظام جديد . فعل التحرير فعل يسمح بتخارج ذاته فى أعمال إبداعية ، أعمال ثورية ، فالتحرير مشروع الذات المستقبل ، نقد للنظام القائم ، وتدمير له . فعل يكشف عن ذاته فى تفكيك النظام ،وإبادة تخوم القمع . إنه فعل غير شرعى وغير قانونى ، باعتباره ضد القوانين الموجودة التى هى قوانين النظام القديم الجائر ، فالوضع الحتمى للتحرير مخالف للقانون .



الباب الثالث

مجالات عمل التحرير

الفصل الأول
تحرير السياسة والجنس والتربية .. ومناهضة الفتشية

أولا : تحرير السياسة.

فى تحرير السياسة[٤٧] يقول ريكو دوسيل إن كلمة السياسة لها معنى واسع تشتمل كل فعل عملى واجتماعى وإنسانى، فالسياسة تطبق على الحاكم والمحكوم ، على المستوى الاجتماعى القومى والدولى ، وعلى الجماعات والطبقات الاجتماعية وأساليبها الانتاجية ، وبالمثل أيضاً مقاربة الشخص للشخص بالمفهوم الواسع هى سياسة .

ويقوم العمل السياسى ذاته داخل مجموع يُبنى بشكل قانونى كتشكيل اجتماعى تاريخى خاضع لقوى الدولة ، من العشائر إلى القبائل ، إلى القرى والمدن والممالك ، مثل مملكات ما بين النهرين ، دجلة والفرات من أربعة آلاف سنة ، وإمبراطوريات الفرس والصين ، والرومان والمكسيك القديمة وبيرو ، ومملكات إسبانيا وإنجلترا والولايات المتحدة ، حيث الحياة السياسية المنظمة . ويتفق كل من أوغسطين ، وفيكو ، وهيجل ، وماركس ، وبارسونز وفيبر ، وليفى اشتراوس على أن السياسة توضح ذاتها كمجموع وظيفى ، إذا كانت وحدة الكل أو المجموع له أساس فى المشروع المستقبلى للذات .

النظام السياسى نظام قانونى لحراسة الوظائف والمهن ، والمهنة أو الوظيفة هى روتين يومى لإنجاز مهمة ، وفى مختلف أنواع الإنتاج يوجد الفلاح ، والصانع ، والقس ، والتاجر ، والحاكم ..وهلما جرا . وكل وظيفة ترتبط بشكل عضوى بالأخرى ، فالكل يشكل عضوية وظيفية ، وهى فى تزايد عبر القرون . ويتدهور المجتمع عندما يتضح أن الكل الوظيفى لم يعد يستجيب للمطالب الجديدة فى العصر التاريخى الجديد .

ويرى دوسيل أن الكل العملى على المستوى السياسى يسمى تشكيلاً اجتماعياً ، وتسمى قوة الممارسة فى المكان دولة . والدولة علاقة مع الطبقات الاجتماعية والجماعات .وتعتمد العلاقات السياسية من ناحية أخرى على العلاقات الاجتماعية التى هى

(47) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.67-78.

مستقرة بين الطبقات بسبب تقسيم العمل والتكوين الثقافى والإيديولوجى وعوامل أخرى تتعلق بنمط الإنتاج.

وكل نظام سياسى له أسلوب عملى ، وله صلابة وفقاً لتأسيسه الوظيفى وعضوية أجزائه، فالنظام السياسى نظام يتشكل من شروط ثقافية وعسكرية وإنتاج ونظم أخرى.

ولكن فى دول المحيط يقول دوسيل يوجد وراء المجموع السياسى المبنى بشكل وظيفى عضوى يوجد الشعب المقهور من الكل السياسى، وأصبح الشعب المقهور يشكل " الآخر " الخارج سياسياً وثقافياً بالنسبة للدولة أو الكل السياسى.

وتعتبر الطبقات المقهورة ، أجزاء وظيفية رديئة فى بناء الكل السياسى، عليها إنجاز وظائف تؤدى بها إلى الاغتراب وعدم الرضا إلى جانب الشعور بالقهر، والمعاناة ، فهى تعيش حياة مختلفة، وتشكل ثقافة أخرى خارج ثقافة النظام المسيطر ، وتشكل الشعوب المقهورة تشكيلات اجتماعية محيطية.عندما تخرج على النظم القائمة التابعة للمركز الإمبريالى ، يكون الشعبى والقومى ضد المركز ضد الإمبريالية ، ويكون التأكيد على معنى الشعب داخل التشكيل الاجتماعى الخارج على بناء الكل السياسى المسيطر.

ويحلل ريكو دوسيل الطبيعة الطبقية فى مجتمعات المحيط ، ويقول :توجد فى دول المحيط طبقات مسيطرة تابعة للمركز تتكون من (مديرى الشركات متعدية القومية ، وحكومات الأقليات وملاك الأراضى ، والبرجوازية الإدارية ، والنخب العسكرية والتكنولوجية)، وتوجد أيضا فئات الطبقة الوسطى (من الموظفين وملاك المشروعات الصغيرة)، فضلا عن قطاعات الطبقة المقهورة (من الفلاحين والعمال والجماعات الإدارية، والعمال الموسميين ، وخدم البيوت والشحاتين) ، دول المحيط ليست شعوباً إلا بعقل طبقاتها المقهورة. وتحافظ الطبقة المقهورة فى الأمة على ثقافتها الخاصة وخارجيتها القصوى عن النظام العالمى الواسع.

والنظام العالمى الواسع مركزه الولايات المتحدة ، فى علاقة اعتماد متبادل مع أوربا واليابان وكندا ، بينما دول المحيط مقهورة تسيطر عليها نظم غير عادلة وتابعة للمركز

المهيمن. وعلى المستوى العالمى شعوب المحيط مغتربة، بفعل الإمبريالية وهى الحاكم العسكرى للمحيطات والقارات، عن طريق قوى الجيوش والأقمار الصناعية، والسيطرة الثقافية عن طريق وسائل الاتصال والإعلام.

وأصبحت الدول الفقيرة عدو المركز، وكان ذلك واضحاً فى مؤتمر الأمم المتحدة عن التجارة والتطور، الداعى لتثبيت أسعار المواد الخام. إن المركز عملية فاشية وتخويف للكثرة السكانية من شعوب المحيط، واستغلالهم بشكل منظم، ولذلك يبقى المركز فى قلق فى حالة تقدم أى دولة فى المحيط، كما هو حادث حول المشروع النووى لكوريا الشمالية، والمشروع النووى الإيرانى.

إن العمل الإمبريالى فى رأى دوسيل ينفذ ضد المحيط على مستويين: المستوى الأول: هو المستوى الاقتصادى، يتم بواسطة سرقة فائض القيمة المضاف للمواد الخام بواسطة إخضاع العمال للاستعمار الجديد فى شركاته المتعدية للقومية. والمستوى الثانى: هو المستوى السياسى، السلطة الحاكمة فى دول المحيط مدعمة سيطرتها بالقوة العسكرية، وأصبح المحاربون مهنيين عسكريين، وأصبح فن الحرب - علم العنف - أكثر دقة فى عمل السيطرة الإمبريالية، وتساعد التكنولوجيا الحديثة التى أصبحت أدوات للسيطرة الإمبريالية. ولذلك فإن البنتاجون هو المسئول عن الظلم الدولى والعنف وإنتاج واستخدام الأسلحة والجيوش. فالعمل الإمبريالى عمل مكيافيللى لا أخلاقى.

وفى داخل التقاليد الإمبريالية يوجد نظام مؤكد من البيروقراطيين غاية الخطورة بسبب مايبدونه من خيرية وضمائر فاضلة، مخلصون لواجباتهم الدينية والوطنية عن اقتناع لايطوله الشك، وهم سبب تقدم الحضارة الغربية بواسطة الخطاب الأسود والفساد والجوع والاستغلال وكل مايساعد على معاناة المحيط.

ترى الإمبريالية أن سكان المحيط ليسوا أناسا كسكان المركز. إنهم كالخنازير الهندية، أو الأرانب الرومية يمكن قتلها. هذا هو عمل الإمبريالية وواقعها. لكن الفلاسفة يمكن أن يكونوا إنسانيين، إلا أن أرسطو وهيجل يبرران الواقع القائم فى بنائهما الاجتماعى الخاص.

اغتراب الطبقات المقهورة فى المحيط يتم من خلال استنزاف فائض قيمة المنتجات ، وانتقالها من الريف إلى المدينة ، من المقاطعات إلى العواصم القومية. فى المراكز الصناعية يوجد دائما استغلال العمل بواسطة رأس المال واستغلال العمال بواسطة الملاك . ففى إطار العمل الرأسمالى الأيدى العاملة فى الريف والمدينة أشد اغترابا على المستوى الاجتماعى والقومى فى التشكيلات الاجتماعية فى المحيط.

وعندما أصبحت هذه الطبقات المقهورة فى المحيط واعية بالتسلط والسيطرة ، فهى تواجه قوى النظام القاهر ، بينما جيوش الإمبريالية تنفذ القمع الدولى والاحتلال الأبدى ، وتنشر بوليساً لضبط الشوارع ، بوليساً سرياً فاشياً تابعاً لقوى القمع الإمبريالى ، والقهر القومى . فالتسلط الاجتماعى والحربى إرهاب وتعذيب منظمان ، وضرب بالقنابل ، وسرقة البشر أو خطفهم.

ويقول دوسيل رغم أن التخلف فى كل مكان فى المحيط ، إلا أن الوعى بضرورة التحرير تزايد. ومن ثم تزداد الحاجة إلى كسر سلاسل التبعية والتسلط فى الواقع الثقافى والسياسى والقومى كما هو حادث (فى أمريكا اللاتينية ، وبلاد العرب ، والأفارقة ، والهند وجنوب شرق آسيا) ، وأبطال هذه العملية التاريخية معروفون ،رغم أن جهودهم لم تتوج بالنجاح التام أثناء حياتهم ، إلا أنهم على الأقل رموز لبلادهم التى سوف تكون يوما ما حرة ، مثل ماو تسى تونج Ho chi minh , Mao Tse tung، وبن بلا ، ولومومبا ، وجيفارا ، إنهم يمثلون رموزا لهذا العصر الجديد . والمنظرون له هم ريكو دوسيل ، و Theotonio dos Ssntos وسمير أمين وأنور عبد الملك وزملاؤهم الفتناميون والصينييون ، Falleto , Frantz Fanon, ورغم أنه لا يوجد بينهم فلاسفة بالمعنى الدقيق للكلمة ، الذى يسمح بتراكم ميتافيزيقى للعمل التاريخى، وربما هذا الكتاب قد كتب ليساعد على ملء هذا الفراغ .

ويرى دوسيل أن النضال من أجل تحريرالمحيط قومياً ، وثقافياً ، وعلى المستوى القارى متنوع جدا ، ويجب أن يؤخذ فى الاعتبار أن نماذج التحرير المتصدية للإمبريالية- وهى

متميزة ومختلفة- فى كل بلد وقطر ، ولكن التسلط الصريح للمركز المسيطر ،وتبعية النظم الحاكمة فى المحيط ليس لها إلا وجه واحد فى مجموع دول المحيط .

ويصف دوسيل صور النضال فى المحيط ، ويبدأ من أقصى اليسار ويتحرك إلى أقصى اليمين . فالأحزاب السياسية وجماعات الضغط يمكن تصنيفها . نذكر من جماعات اليسار الجديد (تروتسكى فى الأرجنتين ، ويسار الثورة الثقافية الصينية ، وبعض العسكريين غير النظاميين من الفلسطينيين الذين يشكلون المقاومة الفلسطينية ، والمقاومة اللبنانية ، وبالنسبة للاشتراكية (الصين وفيتنام ، وكوبا ، وأنجولا) ويسار المواجهة Sandinista Front فى نيكارجوا ، والـ The Farabundo Marti ، و Fron التحرير فى السلفادور ، ومبادئ الأحزاب الشعبية متنوعة (كاردناسس ca'rdenas فى المكسيك ، فارجاز Vargas فى البرازيل ، وبيرون فى الأرجنتين ، سوكارنو فى أندونيسيا ، والماهتما غاندى وحزب الكونجرس فى الهند ، ناصر فى مصر ، ونيريرى فى افريقيا السوداء) ومبادئ الأحزاب العسكرية الحديثة مثل فيلزكو آلفردو Velazco Alvarado فى بيرو ، والقذافى فى ليبيا . وعن مبادئ الأحزاب الليبرالية الجديدة ، والحزب الديموقراطى المسيحى فى أمريكا اللاتينية ، والاحزاب المحافظة بحق على المركز وهى أحزاب فاشية رأسمالية تابعة ، مثل حزب جولبرى دى كوتو Golbery فى البرازيل وبونشت فى شيلى ، وغيرهم آخرون .

ويقول دوسيل إن الأحزاب الشعبية والاشتراكية والديموقراطية ، فضلا عن المقاومة الشعبية أثبتت أنها نموذج التحرير الحقيقى نموذج المقاومة فى لبنان وفلسطين والعراق وفيتنام . نموذج الاختيار المستقل بذاته للمحيط . وهذا لا يعنى أن كل البلاد قادرة على أن تأخذ بهذا الآن . فى الحقيقة هناك أحزاب شعبية ضللت فى التحرير القومى بالمواجهة بين الطبقات (مثل مبادئ حزب بيرون فى الأرجنتين ، وحزب ناصر فى مصر) فقد كشفت الممارسة عن عدم كفاءتهم ، وقت الكوارث ، فالطبقات القومية المسيطرة تتحالف مع الشركات متعدية القومية ، ومع الإمبريالية ضد الطبقات المقهورة ضد الشعب . وكمال أتاتورك ، وناصر ، و هاى دى لا تورى Haya de la Torre وسنجور وسوكارنو سقطوا فى هذه الأخطاء .

ويحذر دوسيل من أنه إذا كانت الطبقات المقهورة لا ترأس عمليات التحرير فإنها سوف ترتد إلى التبعية للطبقة المسيطرة لتكون ثورة مضادة ، وباختصار لن يكون هناك تحرير .

في التحرير بمعناه الاجتماعي الدقيق ، من الضروري أن تجرى العملية السياسية للتحرير في مسارها في المحيط الاجتماعي القومي للطبقات العاملة والريفية . ومنذ بداية العصر الحديث يوجد أفرد يقدرون الثروة التي نهبت من المستعمرات ، وكان الأمريكان الأصليون يملكون الذهب ، والسود يباعون كعبيد ، والآسيويون كمزارعين ، إنهم عالم البروليتاريا الفقيرة في الأمم المنهوبة .

إن الثورة الاجتماعية في بلاد المحيط تتطلب قوة الطبقات المقهورة. وبشكل أساسي عمال الزراعة وعمال التراحيل ، فهم شرط التحرير القومي الحقيقي. وليس هناك خيار آخر من أجل المستقبل . تحرير المحيط يتم فقط من داخل شعب المحيط بطبقاته العاملة والمقهورة وجماعاته الريفية التي تكون إمكانية ثقافة العالم المستقبلية التي يمكن أن تأتي بقفزة كيفية حداثية، بدلا عن أن تكون الإبادة الثقافية والبيولوجية لشعوب المحيط هي البديل الصادر عن المركز، وليتذكر المركز أن موت الطفل الفقير سيكون موته الخاص.

فالإمبريالية والأوليجاركية الاستعمارية في البلاد التابعة تسمح ان بخلق وظائف في المحيط، وتقيم ان صناعات بديلة للمستورد الأجنبي ليتم التطور القومي. لكن القوة والسلطة التامة لم تمارس إطلاقا بواسطة الجماهير العامة، ولكن الإمبريالية لا يمكن أن تتنازل عن السيطرة أو التحكم السياسي في المحيط لأنها ستفقد أسواقا تدر لها أرباحا لا حصر لها، لذلك فإن التحرير هو الإمساك بقوة الجماعات العامة لتهديد نظام المركز داخل التشكيل الاجتماعي الرأسمالي .

والتحرير يستلزم تدبير القوة بواسطة الطبقات العامة من أجل تنظيم " التشكيل الاجتماعي " ، فلسفة التحرير يجب أن تكون واضحة على المستوى السياسي . وإلا يكون التدهور والارتباك يوجه بشكل خاطئ وتكون إعادة التشكيل بأيديولوجيا البرجوازية الصغيرة .

فى الفلسفة السياسية فى عصرنا لم تعد الحكومات منقسمة إلى ملكية وارستقراطية وديموقراطية على نحو ما فعل أرسطو. اليوم الدول مقسمة إلى تشكيلات اجتماعية "المركز والمحيط" المركز يمارس الهيمنة خلال الرأسمالية المتعدية للقومية. يوجد فى المركز دول شبه تابعة : أوربا الغربية واليابان. وفى المحيط توجد تشكيلات اجتماعية ، دول ، هى حرة بسبب جهود شعبها مثل كوبا وفيتنام ، والصين وأنجولا ونيكارجوا.

لذلك فإن التحريرهو المشروع المستقبلى للذات . والسياسى فى العمل التحريرى هو النموذج الأصيل لرجل الدولة . وهنا يشير دوسيل إلى جورج واشنطون ، وبليفار ، وسان مارتن ، وأجستينو نيتو ، وكاسترو ، وماو ، وجان دارك Joan of Arc ، وأولئك الذين وهبوا حياتهم من أجل المقهورين إنهم مثل الأنبياء رموز للشعوب التى تولد وتنمو وتعيش ، إنهم أنبياء الحياة ومؤسسو الحرية.

ويسير بناء النظم السياسية أو التشكيلات الاجتماعية فى المحيط الثائر خلال أربع مراحل بنائية متشابهة وليست متطابقة.

المرحلة الأولى تبدأ بمقاومة القهر ، والكفاح ضد المسيطر ، وهى بالنسبة للمسيطر انقلاب ، وبالنسبة للشعب رد للشرف وبطولة وخير.

المرحلة الثانية ، تستلزم تنظيمات الدولة ، وأسلوباً جديداً للإنتاج ، إنه عصر إنه زمن العدالة ، إنه يوجد مكان لكل فرد ، Borgc ، وعصر لينين ، وعصر بورجى Lincoln التحرير هو وقت الكفاح والأسبقية الحربية على المهنية . جان دارك كانت راعية غنم ، وجورج واشنطون كان فلاحا ، وماو كان مدرسا ، وجيفارا كان طالب طب ، وكاميلوتورز كان قسيسا ، ولومومبا كان مدرسا ، وأجستينوا كان شاعرا ، وساندينو Camilo Torres كان عاملا . كانوا كالفنيين واختصاصهم الحربى كان وطنيا مدنيا . وفى لحظة Sandino إعادة البناء يظهر السياسيون . ويخلى الفن الحربى المكان للحكمة السياسية ، فى معناها التحريرى الحقيقى.

المرحلة الثالثة ، توطيد ارتقاء المبدعين النبلاء الشرفاء.

المرحلة الرابعة ، مرحلة الدولة والتشكيل الاجتماعى ، حيث تنمو القوى الإنتاجية ويكتسب مرة أخرى الفن الحربى أولوية ، والمهن العسكرية تتحصن وتتخندق.

أثناء مراحل التحرير ، وقت العمل كخدمة ، ونفسية الشعب وتقاليده تبنى حول قيم الجلد والشجاعة والجسارة والفطنة الصبورة ، التى تبتعد عن الراحة والمواساة ، بسبب أنها مستعدة للتخلى عن كل شيء - حتى الحياة ذاتها ، إذا كان ذلك ضروريا من أجل أرض الوطن ، والدافع العاطفى للتغيير عند الفقراء المقهورين ، عند الشعب ، هو نفسية شعب التحرير ، حريق أو نار لا تخمد ، وخير بلا حدود ، هو المعيار لكل اختيار إنسانى ، والمسئولية رهيبة، وتحرك حر للعمل نحو التاريخ ، من أجل العدالة وتحرير الإنسان.

ثانيا : تحرير الجنس

فى تحرير الجنس يقول ريكو دوسيل(٤٨) كما أن الظلم السياسى هو خيانة للوطن ، فإن الانحراف عن الحق على المستوى الجنسى ، هو قتل للزوجة وموت للمرأة فى المجتمع الذى فيه تسود الإيديولوجيا الذكورية وتتسلط.

ويرى دوسيل أن الاثارة الجنسية هى التى تحدد علاقة الرجل بالمرأة ، ومن بين كثرة الأشخاص فى الحياة اليومية يظهر شخص ما لم يعد مجرد زميل أو زميلة ، بل امرأة من أجل رجل أو رجل من أجل امرأة ، فالإثارة الجنسية هى الفصل الجديد فى ميتافيزيقا فلسفة التحرير .

وإن كانت " الأنا أفكر " جانباً خلقياً مميزا فى الطبيعة الإنسانية فإن " الأنا أرغب " فى عالم الجنس يعتبرها فرويد إعادة اكتشاف للطبيعة الإنسانية .وإن " الأنا " فى " الأنا أفكر " أنا رجولية ذكورية (لقد أنكر ديكارت أمه وحبيبته وابنته ، و بحث عن " الأنا وحدية").

ولقد أكد أفلاطون فى كتابه " المأدبة " Symposium ، أن الخنثى موجود غريب (رجل / امرأة)انفصل فى موجودين . والرجال يحبون النساء ، ويبحثون عن العودة إلى النوع نفسه. وأرسطو يتفق فى القول بأن الجنس فى نهائيته يحمل الإنسان نحو النوع نفسه ، ليبقى النوع

(48) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.78-87.

بواسطة التناسل ، إذا تخلل الرجل المرأة من خلال النوع ربما يصل إلى الخلود .

وتوما الأكويني في العصر الوسيط يقول " الأم توفر المادة ، والأب يعطي الوجود المطلق للطفل" . واعتبار الوجود نفسه ذكوريا أوهن حب الجنس . وفي احتقار الجسد يكون ازدراء للجنس .

في نهاية القرن التاسع عشر ، يبدأ ضد الديكارتية إعادة النظر في ثنائية الجسم والنفس ، فيؤكد ميرلوبنتي أن الشخص العادي يشكل قصداً جنسياً . ذلك القصد يتوقف على " جسم الآخر " ، فالجنس إحساس بجسم الآخر ، وتكون الإثارة الجنسية عالماً كلياً للفرد ، متى تشكل هذا القصد هو ليس مجرد حتمية بيولوجية ، إنه يعين حدود المنطقة الفينومينولوجية المناسبة لذات الفرد ، هذا القصد نشط ، يمد الموقف الجنسي بالطاقة ، ويعطيه استمرارية حتى يتم تحقيقه تماماً . لذلك إذا استطعنا تجاوز ثنائية الجسم والنفس ، وأثبتنا الوحدة بينهما ، فإننا سنكون قادرين على فهم الإحساس بالجنس ، أو الإحساس بجسم الآخر . أعني الاستجابة لرغبات جسم الآخر . وما إن يلامس ماهو مجاوز أفق الضوء أفق الأنطولوجيا ، فإن الإثارة الجنسية هي الميتافيزيقا الأصلية التي تتقدم إلى منطقة مظلمة ، حيث يسكن الآخر ، وتبدل الفرد أو فقده يفقد الفرد القدرة على كمال الحب الجنسي ، فهو نعمة رهبة ذاتية .

وفي ميتافيزيقا الحب الجنسي Eros ، يقول ريكو دوسيل القصد الجنسي يبدأ باللمس ، والاتصال ، والاهتمام . هو تقارب ، مقاربة ، إنه تقدم محاصر بالحياء ، راغب مشتاق لانتهاك الحرمة . وتنمو بهجة الحواس وتتفجر ، وفيها يتقدم الشخصان ويتراجعان ، يسأل الآخر كآخر بدون كلمات . عما إذا كانت رغباتهم مشتركة ، وبشكل سرى تمتد يد الفرد وراء الوجود المطلق " الضوء الأنطولوجي " ، وبدون الاتجاه لوضع أي قيمة يتقدم الاهتمام ويتجنب التصادم مع حرية الآخر . التي هي ممكنة دائما . ويتجه العرى إلى مازوخية masochism الاغتصاب ويكون قاسيا عنيفا ، وتتساوى المتعة بواسطة العقل والجسم ، الذي يولد مع كل إعادة ميلاد للشمس . ترابط النغم البعيد الذي يلخص كل الحياة والتاريخ ، يعيش بفعل

الجماع الإنسانى ، وإيقاع النغم ينمو حتى تصل فى نوبة الشغف ، وبلا تركيز فى نظام تصبح وحدة عاطفة شهوانية متبادلة فى هزة الجماع إذا حدث بعدل.

فالجماع الجنسى هو واحد من الخبرات الميتافيزيقية المميزة عند الموجود الإنسانى. إنه اقتراب أو نفاذ إلى منطقة تجاوز أفق العالم وأفق العقل ، حيث تأخذنا الرغبة كإشباع لرغبة الآخر ، إنه لم يعد رغبة بل تحقق للرغبة فى المقاربة.

وفى ثقافتنا موت الحب الجنسى هو قتل المرأة ، قتل الزوجة ، والتسلط الذكورى قتل الزوجة ، أفضل من حدده هو فرويد " الجنس بطبيعته ذكرى ، وهذا بسبب أن القضيب معروف بوصفه فعالا ، والمهبل بوصفه سلبيا وضروريا كموضوع للجنس ".

ولكن القضيب عندما يدخل فى علاقة مخالطة لم يعد يحقق الفعل الجنسى ، لأنه بسبب الدخول فى علاقة المخالطة مع الموضوع الجنسى (المرأة) يدخل الرجل فى مخالطة مع زوجته ومع أمه (بسبب أنه بلا ذكورية أصيلة ، لا يمكن أن يكون هناك اختلاف بين القصد البظرى المهبلى للزوجة ، والقصد الفمى الثديي للأم ، المرأة بشكل غامض ، أم / زوجة)، فالفعل الجنسى العينى الحقيقى هو دائما مرتكب الفحشاء فى المحارم.

وفى الوجود الصراعى للقضيب الحقيقى (الأب) والقضيب الممكن (الابن) فى مواجهة المرأة نفسها (بدون اختلاف بين " الأم / الزوجة " بل تحديدها " كأمراة / موضوع جنسى ") ، فالابن لا يستطيع أن يساعد على قهر قضيبه ، ويبقى إلى الأبد عصابيا شرط المحافظة على الغريزة المطلوبة.

الذكورية الـ machismo كالإيديولوجيا تحجب سيطرة المرأة كموضوع جنسى ، ولاينتج عن ذلك اغتراب المرأة فقط ، ولكن تصنع وهن الذكر ، والوهن يمنع علاقته بالمرأة، فيتحول إلى العادة السرية أو الاستمناء من أجل تحقيق كامل لشهوته الجنسية ذاتيا.

وهناك علاقة بين الشهوة الجنسية والسيطرة السياسية ، سيطرة الرجال على النساء ، سيطرة منظمة بواسطة القضيب ،ويكون بديلا أحيانا عن حكومة الأثرياء . وفى عملية غزو أمريكا اللاتينية ، لم يسيطر الأوروبيون على الرجل المكسيكى فقط ، ولكن اغتصبوا أيضا

المرأة المكسيكية ، ومجلس نواب إسبانيا والبرتغال عاشوا فى تسرى بالـ " malinche فالأنا أفكر " تؤسس بشكل أنطولوجى " الأنا المنتصر " " أنا عضو ذكرى " .. فالجنس صورة طبق الأصل للسيطرة الثقافية والاقتصادية والسياسية .

على المستوى العالمى إشكالية اغتراب الجنس لم تحظ إلا بقليل من الدراسة . و فى بعض الثقافات الأفريقية ، الأب والجد والأخ الأكبر الحارس ،يحققون وظيفة القهر والخصى ، والصورة القضيبية بيان عهر أو دليل بغاء ظاهرة للطبقات العامة فى المركز والمحيط ، السيطرة القضيبية تصاحب السيطرة الاقتصادية .

لذلك تعانى المرأة داخل المحيط من تسلط سياسى ، واغتصاب ثلاثى ، مغتصبة لكونها من الثقافة المقهورة ، والأمة المقهورة ، ولكونها عضو الطبقة الواقعة تحت القهر الخاضعة جنسيا .فالمرأة الأفريقية والأسيوية والهندية ضحية الإمبريالية ، والصراع الطبقى والإيديولوجيا الذكورية .

وتأسيسا على السابق فإن تحرير الحب الجنسى سيتم من خلال تحرير المرأة ، والمرأة عرفت دائما كمخصية ، بلا قضيب إنه ضرورى أن تبدأ مرة أخرى . مثلما الذكر له فاعلية منظم . منفتح قضيبيا على العالم هو أيضا لديه المرأة بوصفها زوجة فعالة منظمة منفتحة مهبلية بظرية (على قضيب الزوج) وبوصفها أم منفتحة ثدبياً (لإرضاع الطفل) . وبشكل إيجابى المرأة هى بالفعل شيء ما متميز .

وتحرير الجنس ليس مجرد سلب أو نفى للسيطرة عن طريق نفى اختلاف أو تنوع الجنس ، بل أن تثبت المرأة انفتاحها مهبلياً وبظريا وثديا وفميا (فى وجودها كزوجة وأم) . وفى المقاربة البظرية يمارس عمل التحرير ، ويمارس الجنس كطقس دينى فى احترام الآخر ، وتحقيق رغبة الآخر مثل تبديل أو تغيير الإثارة الجنسية ، مع حرية وتميز جنسى يمكن لهزة الجماع أن تكون فعلا إنسانيا يعطى تأثيرا ونفوذا كاملين تربويا وسياسيا ، كذلك يؤكد دوسيل على أن التفرد وعدم التموضع هو شرط للحب الجنسى .

البيت الجديد ، جماع الحب الإنسانى بين الذكر والأنثى ، يشكل أساس وماهية

نواة قلب البيت. مقاربة الذكر للأنثى هى البيت الأول الأصلى ، فى البيت غرفة معيشة واحدة ، وغرفة غداء ، ومطبخ وغرفة نوم ..الخ ، وليس كثرة الغرف والوظائف التجزئية فى المنزل ، لأن ماهية المنزل هى دفء الحب الجنسى. الزوج والزوجة يرتبطان بدفء الجماع الإنسانى ، وحدة زوجية.

وخلال خصوبة الزوجين يتفتح الطفل . فالذكر والأنثى والحب الجنسى والأطفال والتربية ، يتجمع الكل والأقارب معا حول المائدة والدفء ، منزل أصلى منزل العائلة ، فيه الكل يجتمع معا ، قبل أن يكونوا فى اجتماع سياسى أو حجرة دراسية.

إن الإيديولوجيا الذكورية تغرب المرأة ، والمرأة المغتربة تفسد الطفل ، والطفل الفاسد يخضع لسياسة الظلم. فتحرير المرأة يسمح بظهور أزواج متساوين فى حق الحياة والعمل والتربية والسياسة. ويظهر البيت الجديد ، الجديد تحرراً وإبداعاً وخصوبة وجنساً شرعياً. لأنه لا يمكن أن يكون التحرير هو المشروع المستقبلى للذات فى تصور القضيبية كوجود مطلق يرتكب الفحشاء فى المحارم ، أو أن يجمد إحساسه ، ويعتبر السعادة القصوى تأملا وتفكيرا ، ريكون هذا هو الخصاء والتسامى ، وهذا لا يمكن أن يكون المشروع المستقبلى للذات لتحرير الجنس.

وإذا كان الفعل الجنسى أصليا حقيقياً منفتحاً و مفضالاً ، فالحياء والعفة مطلوبة للجمال الجنسى ويصاحبها تحقق جنسى تام بعدل. أما أن يتعامل طرف مع الطرف الآخر آليا بوصفه موضوعاً جنسياً ، فيكون الفعل الجنسى فعلاً فاسداً بشكل جوهرى.

ثالثا : تحرير التربية Pedagogics

يركز ريكو دوسيل فى تحرير التربية[٤٩] ليس على تحرير الطريقة فحسب ونقد سلبية التلقى عند التلميذ ولكنه يؤكد أيضاً على تحرير الثقافة الشعبية فى مضمون الخطاب التربوى ، إنه الأمر الذى يتطلب المدرس الثورى والمثقف الثورى لما يتميزان به من عقلية نقدية تسمح بانتشار التفكير النقدى بين الناس ، وهو ما يساعد فى قيام الثورة الثقافية.

(49) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.87-95.

كما يوضح دوسيل العلاقة بين التربية والجنس والسياسة ، وكيف أن الخطاب التربوى يشكل نقطة واحدة تتجه إليها السياسة والجنس ، مما يجعل الخطاب التربوى خطابا مختلطا يولد الطفل فى بيت فى ثقافة ، ويربى ليشكل جزءا من المجتمع السياسى. يقارب والد الطفل ومدرس التلميذ. ومرة أخرى قد يجد الإنسان الصغير نفسه فى مراهقته فى صراع أوديبى ، فالنبض والخفقان نحو الأم هو فى الوقت نفسه نبض نحو الأجداد ، نحو الثقافة العامة ، وتوسط أو تدخل الأب ، هو مثل المجتمع والدولة " أنا مثالى " .

وإلى جانب تربية الطفل تنشغل التربية بالشباب والشعب ككل عن طريق مؤسسات تكنولوجية علمية تربوية عن طريق وسائل الإعلام ، فهى مدرسة ثقافية أيديولوجية.

ويتحقق انتقال الثقافة المتراكمة بواسطة النظم التربوية ، من الثقافة الأكثر قدما وبساطة (مثل صقل وتهذيب الحجر) إلى الأكثر حداثة (مثل صنع الأقمار الصناعية ووضعها فى المجرات ، أو عمل اختيارات وقرارات بالكومبيوتر) ، وننتقل من النصائح الأبوية إلى المعاهد التكنولوجية العليا.

ولكن نظام التربية الأهلية داخل تقاليد الشعب والعائلة والطبقة الاجتماعية هو نظام بترياركى . حيث يسيطر الذكر على الأنثى ، والآباء على الأطفال ، هذا النظام التربوى هو قاتل الزوجة جنسيا . والموقف الأوديبى مغروس فى النظم التربوية. قد يسمح للابن بأن يكون أوديبا آخر ينمو.

لذلك فإن المرأة المتحررة تسمح بمظهر الزوج الحقيقى ، والتحقق الكامل للجماع العادل ، يوجد الطفل فى حب. والآباء يستمعون باهتمام لبكاء طفلهم واحتجاجه ، ونقده الصبيانى. وإذا لم يوجد أب مخصى لا توجد أم مخصية ، ولا يحدد الابن كقضيب عدوا ولكن كفم وأيد وأقدام تلامسه أمه ليصبح منتشيا ،وفى انتعاشها وحمايتها ونعومتها ودفء ثدييها ، فى بطء يبدأ الطفل فى التأكيد على الطريق البديل الذى يأخذه لشباب الجنس والسياسة بلا قهر بلا قمع.

وإذا وثقنا فيما وصلت إليه مرجريت ميد من نتائج عن أن سمة مواطن المستقبل تعتمد

على الطريقة التى فيها تشكلت شخصيته جنسيا فى البيت ، فى المقاربة مع الأم والارتباط بوجود الأب والأخوات .

وكان تشكيل الشخص فى السابق ، تربويا وسياسيا واجتماعيا ، يتم أيضا داخل نظم التقاليد الاجتماعية ، وأحيانا كانت هناك مدارس (للحكماء والعلماء) ، كما فى إمبراطورية بيرو القديمة ، والكهنة فى مصر القديمة ، وهى مؤسسات تشكل نظما . واليوم النظام التربوى ووسائل الإعلام ، هما النظامان الأعظم أهمية فى تشكيل الشخص العادى .

الطفل ذرية والديه سلالة شعب ، والشعب من حيث هو مقهور هو خارج ثقافى على النظام الثقافى الحاكم فى دول المحيط والذى يغلب تأثره بالجوانب السلبية لثقافة المركز .

ففى دول المحيط ،فى أمريكا اللاتينية ، وأفريقيا ، وآسيا العمال الريفيون والمقهورون ، والطبقات الهامشية فى داخل كل دولة يؤدون دور الخارج الثقافى .

والثقافات الشعبية فى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا لها مصداقية شرعية ، وهى لم تفهم ولم تدمج داخل المدرسة المهيمنة أو نظم الجامعة أو وسائل الإعلام ، بسبب احتقارها ، واعتبارها ثقافة برابرة ، جهلة ، سحرة وكهنة ، وفوضى وغير عقلانية . ومن يتمسك باحتقار هذه الثقافات يماثل احتقار ابن أوديب لأبيه . القضيب قوة واقتدار ولذلك محتقر .

ثقافة الجماعات المقهورة فى القارات الثلاث ، هى ثقافة عامة ، تحافظ على أفضل ما للعالم الثالث ، وهى الثقافة التى سينبثق عنها اختيارات جديدة لمستقبل الثقافة العالمية . ولن تكون مجرد صدى لأبنية المركز ، وخارجية الثقافة العامة هى أفضل ضمان ، وأقل تلوث لقلب البشرية الجديدة . إن قيمها وفضائلها محتقرة اليوم ، ولم تعرف حتى بواسطة الشعب ذاته ، ويجب أن تدرس هذه الفضائل بشكل ماهر وجيد . . حتى تجد الثورة الثقافية مضمونها الأصلى الحقيقى .

الموت الثقافى للطفل هو اغترابه تربويا ، يقتل الطفل فى رحم الأم عن طريق الإجهاض ، ويقتل فى رحم الشعب ، بواسطة القمع والقهر الثقافى . وغالبا ما ينفذ القمع والقهر باسم الحرية ، وبأفضل وسائل المناهج التربوية .

ففي أسطورة يونانية عامة يقول ابن " الصقر الإله " لإبيه الإله " "يحتاج العجوز لدم الشباب" ولذلك يكون الموت الأسطوري للطفل مثل موت سقراط ، والذى به يؤله اليونان الثقافة اليونانية .

وأوديب الفقير المقموع هو ناتج الإيديولوجية الذكورية ، والتربية الفردية الحديثة تنتهى بتربية الذئب ، الذى يحتاجه هوبز ، شخص مستعد لأن يحارب دائما من أجل أن يبقى ويعيش فى عالم المنافسة .

رسم ألبرت ميمى Albert Memme، وفرانز فانون Frantz Fanon صورة الشخص الثقافية والسياسية في المحيط ، فالثقافة الإمبريالية ثقافة المركز هى التى تقاس عليها كل الثقافات الأخرى . فالموناليزا تنقد كل الصور الأخرى ، والسمفونية الخامسة لبتهوفن ، تبرمج كل التأليفات الموسيقية الأخرى . ونوتردام هى نموذج كل الكنائس . هذه الثقافة تُهيأ لها جميع وسائل الاتصال : الجرائد اليومية والمجلات والراديو والسينما والتليفزيون .

وفى تقدير دوسيل أن ثقافة المركز حُرفت جزئيا داخل دول المحيط ، أعجب بها النخب وخلبت لبهم وتمثلوها ، إنها ثقافة التقدم التكنولوجى ، والعلمى ، والفنى للمركز . هذه النخب أقليات مغتربة فى دول المحيط ، ومحتقرون عند مبدعى ثقافة المركز ، وعلى أقنعة النخب المحلية . وجه المركز منسوخ ،إنهم يجهلون ثقافاتهم القومية ، ويحتقرون جلدهم الأسود ، ويتظاهرون بأنهم بيض يتكلمون الإنجليزية والفرنسية ،يأكلون ويلبسون ويعيشون ، كما لو أنهم منبوذون فى التاريخ . بينما تعيش الجماهير المقهورة على ثقافة الإمبريالية المحرفة ، القائمة على الاستهلاك ، من جرائد وروايات القلب والبغاء وهكذا .

هذه العملية التامة للاغتراب الثقافى هى إيديولوجيا ، تعبر عن أفكار هى أفكار المركز ، تخفى السيطرة أو الهيمنة والتسلط ، الذى تعانى منه بلاد المحيط ، تلك الإيديولوجيا تنشر وتذيع المشاريع الإمبريالية وتوجد سوقا من أجل منتجاتها . والسيطرة الثقافية هى عامل الاغتراب السياسى والاقتصادى عند أولئك الذين أسماهم تشومسكى " Chomsky القلقين المضطربين ذهنيا " النخبة التى تشكلت أو تعلمت فى هارفرد أو فى يالى Yale وتحرير

الثقافة الشعبية فى رأى دوسيل هو الخطوة الضرورية الأولى على طريق الثورة الثقافية للمحيط ، وهو إثبات الثقافة القومية أو الشعبية فى مواجهة الثقافة الإمبريالية ، الثقافة الشعبية هى ثقافة المقهور ، والثورة الثقافية بواسطة التحرير يجب أن تبدأ ، وأن تكون مؤثرة بالشعب ومن داخل ثقافته ومثل تلك الثقافة لها رموز وقيم ، وتقاليد الحكمة المتراكمة تعرف أعداءها وأصدقاءها ، الثقافة الشعبية ليست ثقافة الأقلية ، وهى أقل تلوثاً بشكل نسبى ، وقلب مشع لمقاومة الظالمين.

ولما كان القاهر قد لوث ثقافة الشعب وأفسدها ، فالشعب بحاجة إلى الذهنية النقدية لعقل المفكر أو عقل الفيلسوف المترابط ترابطاً عضوياً مع الجماهير المقهورة، إنه عقل نقدى وفعال، العقل الذى يقول عنه " جرامشى " إنه عقل لم يعش فى برج عاجى ، بل يعيش ويعمل مع الناس كعضو فى الجسم السياسى . فوجود العقل العضوى أمر حتمى ، ليكتسب الشعب الذهنية النقدية ، ويميز الثقافة الإمبريالية المدمجة فى ثقافته ، ويدرك الأفضل الذى لديه فى تراثه القديم ويميزه.

وتأسيسا على السابق يعتبر دوسيل التحرير التربوى مشروع الذات فى مقابل مشروع التسلط التربوى للقضاء على ثقافة دول المحيط ، تعارض مشروع التحرير التربوى سلبية التلميذ كما قال بالوفريرى Paulo Freire . والمقهور الخارج على ثقافة النظام لديه قيمه الخاصة، ومشروع الشعب المستقبلى لا يصاغ بواسطة المعلمين ، إنه بالفعل وعى الشعب ، والفرد المتجه لهذا يجد نضال الشعب طويل الأمد ، فمشروع المستقبل للذات المقهورة ،هو الثقافة الشعبية الممتازة هكذا قال " ماو تسى تونج " .

فالمشروع المستقبلى للذات حق كما يقول دوسيل ، فيه تكتشف الأنتلجنسيا شعبها بداية وتكشف عن العقول المستعمرة ثقافيا بثقافة المحتلين ، ومن ثم يحدث التراجع والعودة إلى الشعب. وأخيرا يدمجون أنفسهم داخل الشعب ، ويحددون هويتهم بالشعب . وإذا وصلوا إلى أن يصدموا الشعب و يهزوه بدلا من ثباته ونومه ، فقد يصبحون الأفراد الذين أيقظوا الشعب ، ومع ذلك فالفعل النقدى للعقلية المترابطة ارتباطا عضويا فاعلا بالجماهير

ليس كافيا .إن ما نحتاجه هو المثقف الثورى داخل الثقافة الشعبية ، شخص لا يترك الشعب إطلاقا ، ولكن يتمسك ويدعم الاتجاه النقدى، إنه الفرد الذى يقود الشعب إلى إيجابياته الثقافية الخاصة.

وتقاليد التحرير التربوى عند دوسيل تتطلب أن يعرف المعلم كيف يستمع باحترام وصمت للشباب وللشعب، فالمدرس الحقيقى هو الذى يصبح صبورا ، والتلميذ المتحمس يصل إلى إدراك متميز للواقع الذى فيه يجد الشعب ذاته . ويعجب التلاميذ والشعب بالمدرسين فى نمط حياتهم ، فى تواضعهم، فى وعيهم النقدى المكرس لتأكيد القيم الفطرية فى الشباب والشعب . مثل هؤلاء المدرسين يؤكدون الزمالة التى توحد وتحرك وتنظم وتبدع.

فالتوجه التربوى لكشف وتعرية خدع النظام ، وتدمير ما أدخله لإفساد وتلويث الشعب، ولإنجاز هذه المهمة يكون النقد ، وقد يكون للنقد مخاطره التى تؤدى للموت ، للسجن ، للطرد ، للاغتيال. ولكن رغم ذلك يقول دوسيل إنه من الثقافة الثورية التحررية سوف تظهر ثقافة عالمية جديدة ، وخيار أغنى من الثقافة الإمبريالية. وسنقول مع الشاعر كارفونتى " أنت ابنى ، ستكون انتصارى ، انتصار المرأة ، آلهة الفجر ، الأم " .

رابعا : مناهضة الفتشية Ant fetishism

يقول ريكو دوسيل فى مناهضة الفتشية (٥٠) «يصل خطاب فلسفة التحرير إلى غايته ، ويواجه ذاته بظاهرة الفتشية، ظاهرة التمطلق والقدسية التى يضفيها النظام على ذاته .وتسمى العملية التى بواسطتها يشكل مجموع النظام القائم مقدسا مطلقا منغلقا " fetishization" فتشية النظام هى موت الشعب المقهور بكل معنى سياسى وثقافى واقتصادى . لذلك يكون موت النظام بمقاومة الفتشية ،وذلك معنى سلبى يحجب إيجابياته اللانهائية ، ويكون ضمانة جدلية دائما للتاريخ ، ضمانة لعملية التفكيك التى ينتجها التحرير فى كل النظم المتحجرة ، فالإلحاد تجاه النظام الموجود هو مطلب سابق للإبداع والخلق والعمل التحريرى.

(50) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P. 95-105.

إن الفتش Fetish كما يقول دوسيل تابو ، شيء ما مصنوع بواسطة الإنسان ، ولكنه يبدو شيئا مقدسا مطلقا يستوجب العبادة ، أمامه يرتجف الفرد خوفا ورعبا . وكل نظام يتجه إلى الفتشية يمطلق ذاته. شأن المركز الأمريكي وأتباعه. وعندما يبلغ النظام السياسى القوة المركزية الجيوسياسية والاقتصادية والحربية ، يقدس ذاته " فى الولايات المتحدة طبعت عبارة " نثق فى الله "على الدولار (الذى عليه أكثر من رمز الثالوث عين الحكمة المقدسة ، والرموز المصطنعة الأخرى) . ومبدأ الأمن القومى الذى تتمسك به المخابرات الأمريكية المركزيةCIA يتأكد فى البرازيل فى الدفاع عن الحضارة الغربية المسيحية ، فالمنطق والقداسة عندها متطابقان. وهل من أحد يتجرأ ويسب ويكفر بكرامة الدولة المطلقة التى هى التنين على الأرض ، فى قول هوبز ، أو الله يمشى على الأرض بتعبير هيجل . وفى النظام التربوى ترى الإيديولوجيا التسلطية الوجود المطلق وجودها ، وغير الوجود المطلق ليس موجودا فالمحيط والطبقات المقهورة ليست موجودة ، وتقدس الفتشية التربوية ذاتها ، وكان بارمينيدس أول كاهن أعلى لها ، وروسو أعظم أتباعه الأوروبيين ، وديوى وأتباعه شماسته.

إنكار قدسية النظام الفتشى إلحاد حقيقى ، إنه نفى النفى ، يعيد بطريقة صحيحة وعملية الأشياء إلى وضعها الصحيح والحقيقى. إن النظام الفتشى ، الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا المقدسة ، تأكل الشعوب تماما ، كما تأكل الخبز ، ولا يقدمون الخبز لأى جائع.

لذلك فإن نقد الفتشية بداية كل نقد كما أكد اليسار الهيجلى فى نقد الدين ، دين النظام ، الدين الفتشى ، دين مملكة العصر الوسيط المسيحى ، الذى لم يكن مسيحية بل ثقافة كما أوضح كيركيجارد .

ويرى دوسيل فى البرجوازية الحديثة فتشية رأس المال ،التى نبهت بمهارة كل الآلهة الأخرى فى هيكل المركز ، ويتعبد لها نخبة المسيطرين الديموقراطيين المستنيرين . ومن مفاسدها كانت التضحية بالمكسيكيين القدامى فى مقاطعات الذهب ، والعبيد السود ، الأسيويين. والمرأة كموهبة للثراء بلا فائدة ولكنها مهبل للإيجار.

فالإلحاد وهو نفى الإله الفتشى (نفى النظام) وتأكيد وإثبات وجود الموجودات الإنسانية من الفقراء والمقهورين. لهذا السبب يقول فيورباخ من الضرورى تجاوز اللاهوت الفتشى الهيجيلى إلى الأنثروبولوجيا إلى الإنسان. هؤلاء الملحدون هم شرط مسبق لإمكانية الثورة التحررية أو ثورة التحرير ، ودعم الخارجية على النظام.

وللعمل الثورى فروض ضرورية ،وهو شرط لإمكانية الثورة، وحركات التحرير ضد النظام الفتشى. فالتأكيد العملى للإلحاد هو الكفاح من أجل العدالة ، من أجل تحرير الفقير ، وإثبات بطريقة عملية أن النظام ظالم وليس مقدسا.

ويقول دوسيل إن الأنبياء اكتشفوا أين كان الفقراء داخل الدولة ومن خلالهم شخصوا مرض النظام ، وأخذوا يخاطرون من أجلهم ، وعرفوا عدم قدسية النظام القائم . وإن الآخر ذاته هو خير ، هو عدالة ، هوحامل رسالة الدين ، ليس دينا فتشيا بل دين ميتافيزيقى ، منبع أو أصل كل النظم العادلة . القادة الأبطال يشعرون بمسئولية تجاه المقهورين ويتحملونها.

ومجرد الإلحاد بالفتشية ليس كافيا فى رأى دوسيل لأنه يسمح بفتشية النظام فى المستقبل . وإذا ثبت أن المقدس ليس شيئا آخر أكثر من كل النظم الممكنة ستكون ثورة التحرير ممكنة ، ويكون الخروج ضد الفتشية افتراضا ضروريا لكل ثورة، لذلك الإلحاد تجاه النظام الفتشى ، هو الشرط المسبق للثورة . إثبات الخروج التام على النظام القائم من أجل التحرير . وكل من الشرطين المسبقين عملى.

لأن الفتشية مثل مذهب " وحدة الوجود " ترى أن النظام مقدس وكذلك أداتيته وممارساته ، ومؤسساته وقوانينه . فالكل والأجزاء مقدس وكل شيء يتحقق داخل النظام ، كل شيء سرمدى.

وعلى الضد من الفتشية يرى ريكو دوسيل فى " الخلق " النظرية الميتافيزيقة للثورة التحررية، ولما كان " الخلق " معناه إعطاء واقع بدون مقدمات، فالنظرية الميتافيزيقية للخلق هى الدعم النظرى للثورة التحررية والخلق فى جوهره اعتراف مستمر بأنه لا يوجد نظام أبدى فى السياسية أو التربية ، أو الجنس أو الدين أو الدساتير أو المؤسسات . .إلخ. لذلك

يُقرقض المُعارض ادعاء القداسة المصنوع بواسطة الدولة الظالمة وينكر أبديتها ويضعها فى حركة التحرير.

فالنظرية الميتافيزيقية للخلق تبدل الكل وأجزاءه، فلا الكون، ولا العالم، ولا النظام يكون مقدسا. نظرية الخلق أنكرت مثل تلك القداسة، وتؤكد عدم الفتشية، والفتش نفسه مصنوع بأيد إنسانية، مخلوق من صنع مخلوق، فلا شيء مقدس. نظرية الخلق إلحاد. والمملكة المسيحية فى العصر الوسيط لم تفهم هذا المبدأ، وأكدت على معنى أو تصور أن المطلق خلق العالم كما هو موجود، فأصبحت السمة الميتافيزيقية أيديولوجيا فتشية.

ولذلك البنية الاقتصادية والتعبدية والأخلاقية للنظام الكونى تهدم الفتشية من يتمسكون بالمسئولية ويخاطرون من أجل المقهورين يدركون أنه لا شيء مقدس يمنعهم من خدمة المقهورين وتغذية الجياع، فالملكية الخاصة ليست طبيعة وليست مقدسة، (هى واقع تاريخى فتشى) وكل شيء يمكن تعديله فى نظام خدمة المقهورين، هذه القابلية للتشكيل بشكل عالمى هى مشروع النظام الكونى المعطل من الحرية الخلاقة المبدعة المنتجة.

والنظام الكونى - هو إنتاج، وخلق، و حرية، ومسرح للخدمة، ومادة لتخفيف جوع الجوعى، ويكتسب وجودا أخلاقيا فيه الحرية فى خدمة الآخر المقهور.

ويقول دوسيل نحن لم نتعبد للنظام الكونى، كما فعل الإغريق والرومان والمصريون، وأهل بيرو والهندوس والصينيون والمكسيكيون. نحن نستعمل النظام الكونى كوسيلة لخدمة المقهور، والخدمة هى العبادة. النظام الكونى له بناء أخلاقى، وإنتاج وإبداع، وتكوين ثقافى عبادى يعمل على أساسه بعدل وحرية، والعملية أو الثورة التحررية التى تقوم فى النظام الكونى بشكل تاريخى، بأسلوب وبطريقة غير فتشية لا تنحنى إطلاقا للمادة كقداسة سرمدية بل إنها ببساطة يستعمل المادة كوسيط.

ولذلك فإن مفهوم الواقع، الماهية، الوجود الحسى Existence هذه المفاهيم الكلاسيكية تأخذ معنى آخر. الواقع هو وحدة الكل المنظم بشكل إبداعى، إنه وحدة نسبية لكل كيان فى العالم. والكون هو الموجود existen، والوجود Being المطلق ليس موجودا existen، والموجود هو المخلوق لحظة الكون فى وحدة الكل الفعال بذاته وفى ذاته.

وماهية الأشياء الكونية هى وحدة العلامات التى بها تفعل بشكل متحد فى نظام واحد. والأشياء الفيزيائية أو الطبيعية لها ماهية واحدة من حيث إنها تشكل نظاما واحدا، كيانا فلكياً واحداً. وكذلك الأشياء العضوية لها ماهية واحدة بسبب أنها تكرر الأفعال ككيان واحد. ولكن الموجود الإنساني وحده بل وكل موجود إنسانى هو وحده فى الواقع كيان، (وأقول كياناً ولم أقل جوهرا لأن الكيان يفترض الجوهر) وحرية الإنسان هى دلالة استقلاله الحقيقي وفاعليته وتأثيره. والشخص وحده، وكل شخص هو واقعي وحقيقي وله تاريخ.

بينما المادية الكونية الساذجة تؤكد أن كل شيء مادة. وأن المادة سرمدية، وإذا كان للمادة حياة وذكاء وجمال ...الخ فى القدرة أو فى الفعل. وهذا يعنى أن المادة مقدسة، وكل واقع ينشأ عن المادة هو أيضا شيء سرمدى، ومن ثم ليست هناك حرية ولا مسئولية، فالحتمية والضرورة حكم أسمى، فكل شيء مقدس، وبالمثل الإمبراطورية القاهرة والتربية. .الخ كل مقدس.

ومن هو القادر على التجديف ضد المقدس السرمدى، إن المادية الساذجة تنتهى إلى الفتشية. والفتشية تحمل على أى نوع آخر من وحدة الوجود والمثالية.

وعلى العكس من المادية الساذجة المادية النقدية التى توازى الإلحاد بالفتشية، تفسر الطبيعة بوصفها مادة للعمل هى إمكانية أو وسيط للعمل هى وسيط للخدمة فى بنية ثقافية تعبدية للنظام الكونى.

إن العبادة اقتصاد يعطى الآخر بعدل، عمل يخدم، يحرر المقهور. والاقتصاد العادل هو توزيع جملة الأشياء المصنوعة بين الشعب بإنصاف وعدل تلك هى العبادة، إعطاء الطعام للجائع، والفقير معدومى الحيلة، والأرملة واليتيم، طقس دينى أو عبادة. المادية الحقيقية، عبادة النظام الكونى، تعيد ثمرة العمل والأرض إلى خدمة الفقير.

عمل التحرير عبادة أسمى يعطى سعادة أسمى، والشعب الذى يحرر ذاته هو اللامتناهى، وتحريره هو نهاية كبوة فى تاريخه، وفرح وابتهاج.

الفصل الثانى
تحرير الطبيعة، ومدلولات الألفاظ والمعانى، والإنتاج، والاقتصاد

أولا : تحرير الطبيــعــة

فى حديث ريكو دوسيل عن تحرير الطبيعة (٥١) ، يبدأ بتحديد الطبيعة وتعريفها، فى علاقتها بالكون وعلاقتها بالإنسان ، وما أثمرت عنه هذه العلاقة هو وجود العالم والتاريخ ،كذلك يناقش التصورات المختلفة للطبيعة قديماً وحديثاً .

فى علاقة الطبيعة بالنظام الكونى وعلاقتها بالعالم يتعرض دوسيل لقضية الحياة فى الكون مركزا على ثلاث قضايا : جوهرية الحياة وتاريخ النشوء النوعى، وتطور ما بعد النشوء النوعى. ويهتم دوسيل بنشأة الإنسان وتطوره حتى وصل إلى الإنسان النوعى _فى رؤية دارونية علمية - ويناقش علاقة الإنسان بالطبيعة ، وتطور هذه العلاقة التى أصبحت مدمرة للطبيعة بفعل سياسية المركز المسيطر بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وفى النهاية يؤكد دوسيل على العلاقة بين التحرير السياسى للمحيط واستعادة التوازن الأيكولوجى للطبيعة.

يقول دوسيل إن الطبيعة جزء من الكون متضمن فى العالم ،هى مجموع الموجودات الطبيعية ،هى مجموع من النظام الفلكى والنظام العضوى وغير العضوى. فالطبيعة هى مجموع الموجودات الطبيعة غير الثقافية المتضمنة فى العالم ،هى أصل أو أساس المشروع التاريخى للعالم ، هى مجموع ظواهر الكون فى العالم ، هى الموجودات الطبيعية المحسوسة والمختلفة عن الأشياء المصنوعة أو الأشياء الثقافية.

والطبيعة هى مادة العمل الإنسانى خلال علاقة الإنسان بالطبيعة التى هى علاقة إنتاج وإبداع ، إذا كان هناك تاريخ للعالم هناك بالمثل تاريخ للطبيعية.

ويرى دوسيل أن اليونان قد فهموا الطبيعة بوصفها سرمدية ،وفهم أهل العصر الوسيط

(51) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.106-117.

الطبيعة بوصفها طبيعة مخلوقة متناهية . وبعيدا عن مبدأ الفساد فهم الأوروبيون المحدثون الطبيعة كمادة يمكن ملاحظتها بشكل رياضي منذ (جاليليو) ، ويمكن تسخبرها واستغلالها بشكل اقتصادى وصل إلى درجته القصوى منذ الثورة الصناعية ، فالطبيعة بالعمل ورأس المال هى أصل أو منبع أسطورة التقدم الحضارى .

وتصور الطبيعة اليوم مختلف عن طبيعات أرسطو ،وعن الطبيعة عند هولباخ وشيلنج وهيجل . وجد علم الفلك مع نشأة علم الكون ، فالعالم لا هو أزلى وغير قابل للفساد كما كان بالنسبة لأرسطو وابن ميمون ، أو ثابت كما بالنسبة للأكوينى . . . الأرض عمرها أكثر من أربعة آلاف مليون سنة مضت ، ويستطيع أن يحسب العلماء عمر الشمس وعمر النجوم وعمر المجرات وحركتها وسرعتها .

وكل النظام الكونى الفيزيائى هو كما يقول دوسيل نظام ضخم له وحدته الجوهرية وتماسكه (وليس الجوهرية هنا بالمعنى التقليدى) والكون كمجموع حقيقى هو وحدة جوهرية بمعنى أنه يشتمل على كثير من الأساسيات (الهيدروجين ، والحديد ، والرصاص) التى تجعله نظاما جوهريا . وفى حالة ما يكون الأساس مجموعا فيزيائيا حقيقيا ، فالوحدة لا تنبثق من مجرد عملية تجمع معقدة ، ولكن تنبثق من تماسك فيزيائى ، ليس نظاماً اصطناعياً آليا ، وفلسفة الطبيعة يجب أن تفسر هذه القضايا .

مجموع النظام الكونى كشىء واحد مفرد ، وحدة جوهرية ونظام حقيقى ، موجود ضرورى بذاته ومن داخل ذاته ، نظام حقيقى متضمن فى العالم كطبيعة ، وفى مثل تلك الطبيعة ينبغى أن نميز الفيزياء الفلكية ، والفيزياء الدقيقة (الذرية) أو العضوية أو الحيوية .

ولكن داخل النظام الكونى تأخذ " الحياة " مكانا ، حيث نرى التعقيد الكبير جدا فى الخلية الحية المفردة ، وفى التناغم الوظيفى للأجزاء البنائية لنظام الحياة الجوهرى ، الخلية الحية المفردة معقدة كثيرا ، أكثر من النظام الكونى غير العضوى ككل .

وتبدو الحياة فى الكون ، الحياة على الأرض مابين ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مليون سنة .

إنها تظهر وتستمر خلال عملية التطور . ، وهنا نحن أمام ثلاث قضايا : جوهرية الحياة ، تاريخ النشوء النوعي ، تكاثر الفرد داخل النوع ، وتطور مابعد النشوء النوعي.

ويؤكد دوسيل أن جوهر الكون غير العضوى كل متفرد ، شيء واحد فقط . فالذرات ، والجزيئات ، والصخور ، والنجوم ، والمجرات أجزاء مفردة لنظام واحد ، لكن على العكس كل موجود حى ، من الموجود وحيد الخلية إلى النبات والحيوان له جوهر فرد ، وليس كما فى حالة الشخص الإنسانى ، إنه فرد فريد بالمعنى الميتافيزيقى بسبب استقلاليته . ومثل الجوهر الفرد فى كل وجود حى له وحدة جوهرية ، مع تماسك أعظم وتنوع وظيفى أكثر من عمل كل النظام الفيزيائى ، الجمادى أو غير الحى.

ويمكن فى رأى دوسيل أن نرى الوحدة الحية والفردية الأعظم ، فى قدرة الموجود الحى على إعادة الإنتاج أو التكاثر الذاتى فى تاريخ تطور السلالات فى أنواع ثابتة خلال إعادة إنتاج أفراد جدد بهوية وراثية تناسلية متشابهة بدقة فى الصفات الوراثية . ، وبذلك يصبح الأفراد أنواعا.

ويقول دوسيل يتطور النوع وينتشر بتوليد فرد جديد ، يستطيع نقل النظام أو خطة التكوين الموجودة إلى نوع جديد . وخلق الماهيات الدقيقة ما بعد انقسام النوع المفرد إلى نوعين أو أكثر متميزين وراثيا ، وهو ما يسمى بالتطور ، فالتطور يحدث عندما يوجد فرد جديد يمتلك فى نظامه خطة تكوينية أو وراثية جوهرية مختلفة عن أولئك السلف . وإنه يستطيع عن نوعه تكوين فصيلة نوعية جديدة ، فالجوهر الحى أو الماهية تتطور ،وتبدو الحياة أن تكون ما قاله برجسون الطاقة الروحية . إن التناهى البيولوجى يفوق الطاقة المتاحة ، ويتوجه إلى درجة أكبر فى التعقيد والشعور ، فالبيولوجيا الفلسفية يجب أن تفكر فى هذا الموضوع.

وعن تطور الموجود الإنسانى يقول دوسيل تطور وجود الموجودات من موجود أحادى الخلية إلى متعدد الخلايا . من النبات والحيوان ، من الحشرات إلى الفقاريات ، من الكائنات المائية إلى البرمائيات ، والطيور والثدييات ، والحيوانات العليا من الثدييات . وأكثر من ثلاثة

ملايين سنة مضت ، وأخيرا ظهر الإنسان ، وتطور من الإنسان الماهر homo habilis الإنسان الشبيه بالقرد إلى الإنسان النوعى ، مع اختلافات سلالية مميزة.

والموجود الإنسانى بجوهره يعتبر شيئا ما مستقلا بذاته ، فى تماسك نسقى جوهرى محكم إلى أقصى حد. فللإنسان وحدة جوهرية بالفعل ، ليس لأنه يمتلك العقل ، ولكن لأنه يمتلك علاقة التغير الحقيقى ، إنه موجود بالنسبة للآخر ، أذرع وأرجل ، وأعضاء جنسية ، وتشكيل جمجمى ، وجهاز للكلام ، وموجه بعقله للإشارات الميتافيزيقية ، منفتح على الآخر ، وهذا ما يساعد الشخص على أن يكون شخصا ، يسمى جوهرا متناسقا. ولذلك يقول دوسيل إن الجوهر الفيزيائى غير العضوى لا يستجيب للعاطفة منغلق ، ولكن الجوهر الحى فى سلسلة من النبات تظهر ردود فعل معينة داخل وخارج ، وعند الحيوان تظهر استجابة تعود إلى النظام العصبى. وبشكل أكثر تعقيدا فى الحيوانات العليا. ومع ذلك ، الدرجة الأولى للإحساس ذكاء حركى لا يجعل الفرد قادرا على فصل نفسه بشكل مميز عن النوع. ولكن فى الموجود الإنسانى بسبب نظامه العصبى ، والذى لديه تماسك عقلانى لا يحصى ناتج من أربعة عشر الف مليون خلية عصبية فى القشرة المخية ، تجعل خبرة مقاربة المجموع الخارجى وتمسكه بوسائط عديدة فى مجموع العالم أمراً ممكناً.

لم تظهر البشرية فى البداية كنوع يعرف كيف يفهم ويفسر ويسأل كما هى اليوم ، داخل النوع الإنسانى نفسه ، كان هناك نضج الماهية من الإنسان الماهر الإنسان الشبيه بالقرد , Pithecanthropus or Neanderthal الذى تطور إلى الإنسان النوعى homo Sapiens فكان نضج الصفات التكوينية . والموجودات الإنسانية المبكرة ، يمكن أن تكون ذكية ، ولكن ليست عاقلة أو حرة ، مثل الطفل يكون ذكيا من مولده إلى أن يصل إلى عمر العقل فى نهاية طفولته ، والحرية مع سن المراهقة. وبنفس الطريقة يعبر الأشخاص عن ذاتهم كمجموع أو نوع. قلة من الأفراد منفصلة خارجية مميزة كالآخر. وفى الإنسان النوعى يسود العقل وعليه يؤكد ذاته بوضوح خارج مستقل . وهكذا يكون الإنسان قادرا على أن يكون ذاتاً تسعى نحو التغيير ، وعلى كل تواصل معقد ، واستخدام الإشارات العقلية (مثل اللغة الإنسانية).

واقعة الاستقلال الإنسانى واقعة حديثة ، والانغلاق الخارجى للجوهر الإنسانى اعتماداً على أن كل فرد هو متميز وليس مجرد مختلف. فالنوع الإنسانى لم يتشكل بواسطة أفراد متعددين من هوية واحدة ، وإنما تشكل بواسطة أفراد متميزين مختلفين وهم الذين يشكلون تاريخ النوع ومضمونه، ومضمون النوع متشابه ، ولكن اختلاف الفرد ليس مجرد اختلاف، إنه النوع الذى له تاريخ أو سيرة ذاتية.. وخارجية ميتافيزيقية وتحرير يعتمد على الوجود الحقيقى للجوهر الإنسانى حرية ومسئولية ، والموجود الإنسانى هو الوحيد الحر الذى له عالم.

يقول ريكو دوسيل إن الموجود الإنسانى الذى يتجه نحو الآخر ، بوصفه خارجا فى وحدة متماثلة ، يتجه نحو الأبنية الاجتماعية (الطبقة والأمة) ونحو التشكيلات الاجتماعية (أساليب الإنتاج) . ويفكر الشخص الإنسانى فى الحرية والانفصال. فهو الموجود الوحيد الذى يستطيع أن يتجه إلى التأمل والتفكير عن أشياء من أجل أن يفهم هذه الأشياء فى العالم، وأن يكتشف العالم وأنه يشتمل على أشياء كونية وجمادية وحيوانية ، وهو ما حدث منذ وجود البشرية على الأرض . فالطبيعة قديمة شأنها شأن الطبيعة الإنسانية. وفى النظام الكونى ، الطبيعة قائمة مستقرة لأنها جزء من النظام الكونى. وبسبب رعب الظواهر الطبيعية ، وقوة الحيوانات المتوحشة ، وعدم القدرة على فهم أفعال الطبيعة : البرد والجوع والعزلة والفوضى أو الارتباك يهاجمون البشرية من كل جهة والطبيعة تتطور مهددة أفق الحب الجنسى. الطبيعة كأرض للهروب أو كمكان فيه يسكن ، ويلبس ، ويأكل ، :أفق مايزال بدون حدود. فالعبودية ، والعدوانية ، والطبيعة الفوضوية ، هى طبيعة الشهوة الجنسية حيث يصنع البشر منازلها ، فإنها أيكولوجية ، وبهذه الطريقة يظهر جدل الشخص الكونى وتظهر الطبيعة كعادة .

ومن الطبيعة يحصل الإنسان على الخشب الذى بعد اكتشاف النار ، يكون دفئا وأمنا وضوءا . فى اكتشاف الإنسان الكهف كبيت ، والحجر كباب ، وثمار الأرض للازدهار ، والحيوانات التى ذات يوم تكون للرعى من أجل سد النقص والإشباع بتوفير البروتين.

الطبيعة إزدهار ومأوى وحماية ، وأم ، إنها طبيعة جميلة ، رونق الشروق والغروب ، والجبال، والجداول والأنهار ، وغناء العندليب وتوحش وقسوة المحيطات ، وعطر الورود.

لقد كانت الطبيعة مثل الحديقة تحولت بواسطة النوع الإنسانى إلى مزبلة كبيرة . فالبشرية التى عاشت تحترم الشجرة وعبدتها ، حولتها إلى موضوع للعمل. ونادى الرومانتيكيون "بالعودة إلى الطبيعة" . وكذلك فعل الهيبز ، والطبيعة مقدسة عند اليونان " الأرض الأخت " ، ويعتبر الآن الإنسان ذئبا مدمرا للطبيعة .

إن الطبيعة كمادة أو موضوع مستغل قابل للتدمير بلا حد ، وهى مصدر المنافع ومنبع اكتساب رأس المال، ، ووقت شروع المركز فى السيطرة الواسعة على العبيد (وجعلهم عبيدا للعمل فى الطبيعة)، وهذا يفسر بوضوح تمسك المركز (أوروبا سابقا ، والولايات المتحدة الأمريكية الآن) بتغيير التوجه الشخصى بالنسبة للطبيعة ابتداء من الثورة الصناعية، ووصولا إلى قمة الهذيان فى الدولة الرأسمالية الإمبريالية الاحتكارية. والمجتمع المفرط فى الاستهلاك عدوانى مدمر للطبيعة كوسيط (والنتيجة المنطقية هى التميز الواضح للشعوب فى المحيط) الطبيعة المؤلهة دائما هى الآن المواد الخام ، من الحديد والتبر والبترول ، والقهوة والقمح ، والماشية والأخشاب.

المجتمعات الصناعية حولت الحدائق إلى مزابل . فضلات الصناعة تقتل النبات والأسماك فى البحار ، وخلخلة المناخ بالغازات الخانقة السامة ، ودمروا المنابع الطبيعية للأوكسيجين (فالولايات المتحدة تسرق من المحيط أوكسيجينه ، لأنها تستهلك أكثر مما تنتج) ، ونادى روما أوضح أنه توجد منابع أو مصادر طبيعية لا يمكن تجديدها فالتلوث فى تزايد وتكاثر، النوع الإنسانى ذاته غير مسئول عن أن الطعام المتوفر يتدهور ، وإننا نقترب من انهيار أيكولوجى كبير، فالطبيعة يمكن أن تبيد هذا النوع الذى تحول لا عقلانيا بسبب نظامه الاقتصادى. فالطبيعة الباقية مريضة سلبية تستجيب للهدم والتحطيم بلا معارضة ، وأولئك الذين يدمرون الطبيعة يدمرون أنفسهم.

ولكن النظام الاقتصادى التكنولوجى للتشكيلة الاجتماعية الرأسمالية يبدو غير راغب

فى التغيير ، وتشرع الرأسمالية و تدفع بمنطقها الخاص لأقصى أرباح ، وكذلك الإنتاج الاستهلاكى . فإلى أى مدى يستمر مسارها التخريبى أو المدمر ، إلى متى ؟ وإلى أى حد ؟

إن الطبيعة الأرض ، محيطها الحيوى ومحيطها الجوى مجروحان جروحاً مميتة. والتقرير الثانى لنادى روما يؤكد أن مناطق المركز تقاوم الكوارث بشكل أفضل، أما أولئك الذين فى المحيط فسيموتون أسرع ، لكن الكوارث كوكبية الآن ، وسوف تؤثر فى سكان كل المناطق المركز والمحيط معا . والمسئولون عن دمار الطبيعة هم القوى المتطورة فى المركز ، هم المسئولون عن أكثر من ٩٠٪ من تلوث الأرض ، ومع ذلك هم فى العدد يعتبرون أقل من ٣٠٪ من سكان العالم. المركز الصناعى لا يتخذ قرارا ليقلل من زيادة التلوث . فاقتصاده مؤسس على مبدأ " اللامعقول "فى الربح السريع دائما .وبعض المعجزات التكنولوجية تعيد التوازن الأيكولوجى. ونصح الرومانتيكيون والأخلاقيون نادى روما بأن يقلبوا الذئاب إلى نعاج، ولا يبدو بالمثل أن هناك حلا سيظهر من مصادر أخرى.

أيمكن أن يكون للرأسمالية توجه جديد بالنسبة للطبيعة ؟ هل يمكن أن تكون أقل تدميرا ، وأقل استهلاكا ، وأكثر اقتصادا ، وأكثر احتراما للطبيعة؟ وهل يمكن أن تكون الشعوب- التى لم تصل إلى درجة التطور التكنولوجى داخل النظام الرأسمالى- نظاما مدمرا عندما يعاد تحديد العلاقة مع المركز ؟

ربما فى لحظة تطلب شعوب المحيط ، ثمنا عادلا لموادها الخام (ولعملها المستمر فى الخدمة ، تحت القهر والسيطرة) ، وبالطبع قبل أن تأتى تلك اللحظة فإن قوى المركز سوف تكون قادرة على تحويل كثير من الصناعات إلى المحيط ، حيث تؤكد سيطرتها وتحكمها بعمليات أكثر تعقيدا وخسارة أقل. وتستمر فى القهر والسيطرة ، ولكن فى النهاية دول المحيط فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تعيد خلق صداقة الطبيعة وتأخذ وضعها إذ لم يكن الوقت قد تأخر جدا.

فالتحرير السياسى للمحيط عند دوسيل يبدو أنه سيكون شرطاً أساسيا لإمكانية استعادة التوازن الإيكولوجى الطبيعى . ويؤكد التحرير الحقيقى الخروج الثقافى ، متعهدا

بألا يحاكى ببساطة العملية الاقتصادية والتكنولوجية التدميرية فى المركز ، وستكون أنسنة الطبيعة حماساً وتطوراً ثقافيا بعدل .

إنه وقت البحث عن الأساس الميتافيزيقى لحركات السلام فى أوروبا والولايات المتحدة ، وحركات تحرير العالم الثالث ، فالأساس لا يمكن أن يكون شيئا آخر أكثر من الحياة - الحياة الإنسانية كوجود مطلق - المهدد بسباق الجيوش فى المركز ، والظلم فى المحيط . والنظام الرأسمالى غير قادر على توزيع إنتاجه الزائد ، ولا يمكن استعمال كل قوى إنتاجه الضخم . وما ينتج عن ذلك هو البطالة ، والبطالة اختزال القدرة المباعة ، واختزال الإنتاج ، وتقل صناعة الأرباح بسبب اختزال الإنتاج والاستهلاك الأقل . وتكون الاستعانة بصناعة الجيوش والأسلحة . والقوى الحربية معناها الموت والتهديد بانطفاء الحياة كلها . واعتاد المركز على إبادة حركات التحرير فى المحيط ، ولكن الحياة مهددة فى المركز بواسطة القذائف الذرية ومهددة فى المحيط بالجوع والظلم .

ثانيا : تحرير مدلولات الألفاظ والمعانى

فى تحرير مدلولات الألفاظ والمعانى[52] أو السيموطيقا Semiotics يقول ريكو دوسيل إن فلسفة الموجودات لها جانبان : جانب الوجود الطبيعى وجانب الوجود الثقافى . ويسمى دوسيل الوجود الثقافى توسطاً باعتباره ثمرة الإنتاج الإنسانى فى علاقته بالطبيعة . فما نسميه ثقافة ، قد يكون أشياء من صنع الإنسان أو رموزا تشير إلى أو تدل على الأشياء والموجودات .

و تعبير الذات قد يكون صمتا فى المقاربة وجها لوجه ، فى تغذية الأم للطفل ، فى قبلة المحب ، فى تقارب الآخر مع الآخر ، يكون صمت الامتلاء ، وتكون الكلمات إلهاما ووحيا ذاتيا ، فتكون الدلالات قولا فائق الوصف لا يقول شيئا ما ، أى شىء ، تشرح الدلالة ذاتها فى المقاربة ، إنها تجل وصدق ، حقيقة أولية أمام الآخر ، مسئولية صامتة أمام الآخر ، عنها لاشىء يمكن أن يقال .

(52) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P.117-126.

بدون المدلولات لا يمكن أن تظهر الإشارات التى هى كجسر لعبور المسافات فى التواصل والتعبير. ويتطلب التواصل بين الأشخاص إنتاج الرموز، لنقل ما بداخل الفرد ودفعه إلى الخارج .

والجنس البشرى (على خلاف الحيوانات) قادر على إنتاج الإشارات الرمزية ، والإشارة عنصر له معنى ، والمعنى يمكن تأويله عند العلماء .فالموجود الإنسانى موجود حى لديه لغة وعقل ، ويصل إلى التعبير عن ذاته ، ولديه القدرة على أن يقول شيئا حول شيء ما له معنى ودلالة.

ويتبع التعبير الإنسانى شفرة ، والشفرة لها مستوى وراثى وتكوينى وجينى، هى نوع من البناء الذهنى أو العقلى الفطرى كما يقول تشومسكى CHOMSKY وكقواعد منتجة تفعل بشكل أساسى وثمرتها متطورة من البلوغ إلى الشباب (كما يقول بياجيه) ، والشفرة هى إرث ثقافى تاريخى واجتماعى عند (ليفى اشتراوس)، وتتعلق قبلية شفرة التعبير بمقولات أرسطو (المرتبطة باللغة اليونانية) ، أو مقولات كانط (المرتبطة بالأحكام).

والطفل لكونه إنسانا سريعا ما يكتشف معنى الرمز أو الإشارة بأن يكتشف دلالة الرمز باعتباره دالا على مدلول، ففى البعد الدلالى يظهر الشيء ويكشف ذاته.

والدلالة أحد جوانب الشيء ، ولكل دلالة تسمية أو معنى مباشر، وتغير الدلالة يغير المعنى ، فيكون تطور المعنى فى العالم التاريخى، أى أن تغير الدلالة هو ما يشكل الإمكانية لتاريخ اللغة وتطورها.

واللغة كمجموع يعبر عن العالم لها نماذج كثيرة ، توجد لغات للثقافات الأوليجاركية ، ولغة الثقافة الجماهيرية ، وهناك أيضا لغة الثقافة العامة، وتوجد لغة الجنس، وهناك اللغة الدينية (كما أشار رولاند بارث Roland Barthes، واللغة السياسية والتى لا تكون مفهومة بواسطة ما يقال ولكن بما تتعلق به ضد من ، ومتى ، ولماذا .. إلخ. واللغة التكنيكية. أما اللغو فنجد فيه الإحساس بالمعنى أو الإحساس بعدمه ، يكون مفقودا .

وفى عالم الإشارت والرموز قد تظهر فجأة دلالات غير ثابتة ، شخص ما يعوى (مثلا) من الألم (آآآآه) إنها ليست كلمات منطوقة ، ولكن معبرة تجعل شعرك يقف فى النهاية ، وإحساس مرعب فى حبلك الفقرى ، إنها قد تكون صادرة من مثل أولئك الذين يواجهون فرق الإعدام وأجسادهم وصدورهم عارية ، وفى شخصهم رسالة معينة ، تفوق كل شفرة وتشرح كل تعبير غير متوقع.

فى جسد الآخر الفقير ، المقهور ، الأمريكى اللاتينى ، الأفريقى ، الآسيوى ، النساء المغتصبات ، والطفل المغترب ، والشخص المتحدى ، والساخط ، وفى جسد "الآخر" من كل هؤلاء وغيرهم الكثير تكون "الكلمة" ويكون تطابق المعنى والدلالة، فالآخر هو حقيقة أكثر من الحقيقة ، والحقيقة هى اكتشاف معنى شىء ما فى الواقع ، وتعبير المقهور كخارج يستلزم دائما تفسير المخاطرة والجسارة والمغامرة والشجاعة.

وتحدد الإيديولوجيا - أيا كانت فى السياسة ، أو الجنس ،أو التربية - الخطاب الذى يبرر ويخفى تسلطها. وقد يكون الرمز فكرة ، كلمة ، شكلا ، صورة ، صوتا ، له أفق من المعنى ، فى استعمال جديد أوليجاركى ، أو فى ثقافة إمبريالية ، أو فى ثقافة عامة صامتة كتعبير مكبوت.

ولقد فجر سؤال الإيديولوجيا صراع الدلالات عند اللغويين ، فالذهنية الإيديولوجية فى أى إيديولوجيا مبنية على مجموع الدلالات المسيطرة ، والشعب كجمهور مغترب يمكن أن يكون لديه ذهنية إيديولوجية ساذجة تقبل بشكل سلبى السيطرة أو التسلط الذى يعانيه . وفى هذه الحالة الرمز لا يكون واقعا مكشوفا للقهر ، إنه يخفى القهر ويزيفه.

وهنا يكون قلب المدلول وهدمه ضروريا، لا توجد كلمة تعبر عن الأمر المثير للاحتجاج تكون وحيا ، وإنما هى عملية هدم وقلب تتحقق فى التاريخ.

إن نداء الألم عند المقهور ، الذى يتراكم فى احتجاجات أو بيانات تحرير ، كتحرير المرأة. تمرد الشباب الصغير ضد معلميه ، هى رسائل أو كلمات أو رؤى مجازية لأنها تنقلنا إلى ما وراء الكلمة المنطوقة التى ينطق بها الفرد كخارج على النظام القائم ، إنه من المستحيل

أن تحل شفرة الكلمة (فى سرمديتها) لأن رسالتها تشير إلى أنها لا تكون مجرد معنى (شيء ما) ولكنه معنى ميتافيزيقى ، فلا يمكن أن تحل الشفرة نهائيا ، ولكن يمكن أن يكون حل الشفرة نسبيا بواسطة المقاربة. وهذا ليس فى مستوى التفسير العقلى ، ولكن فى مستوى قبول معناها ، لأن المتكلم يقول به ، لذلك فإنه يكون فعلا تاريخيا.

فالطريقة الوحيدة لتشفير المعنى تتطلب الفعل العملى للخدمة ، الذى يسمح للفرد بتلقى الرسالة بالقرب من المحيط الخارج على النظام القائم لذلك فإن أولئك الذين وجدوا أنفسهم فى مجموع دلالى سائد ، ويضعون أنفسهم فى الموقف النقدى موقف الخارج على النظام بدون حماية. وهذا سبب العبقريات الفنية فى أسلوب حياتهم، وهم باقون أحياء حتى فى موتهم ويصلون لكل خارج آخر .

فالجمال الشعرى والخيالى والمدلولى يجد تفسيره فى نظام المشروع المستقبلى للذات ، مشروع التحرير من القهر ، هو فجر ليوم الغد ، فالفنان والفن يكشف النظام القائم ويعريه كشاهد على ما سيأتى بشكل وحى أو إلهام ، إذا كانت الرؤى هى وحى الكلمة عند المقهور، ووجه المقهور، وتفسير قبحه وفقا لقوانين الجمال المعروفة ، يكون إبداعا واتساقا للرموز ، لذلك تكون ولادة أو إنتاج النظام الجديد. القبح البادى فى وجه ملامح المقهور ، والوجه الذابل للفلاح ، واليد الخشنة للعامل ، والجلد الجاف للمرأة ، هى نقطة انطلاق لجماليات علم جمال التحرير ، الذى يكشف الجمال العام . الجمال غير المسيطرعليه من ثقافات المركز وطبقاته الأوليجاركية ، ووسائل إعلامه.

معظم الطبقات المقهورة ليس لديها وعى نقدى ، فحمل التناقضات الإيديولوجية ثقيل عليهم، وهذا يجعل من الفيلسوف صاحب عقلية ذهنية عضوية ، هو كالمقاتل أو المحارب عن المذهب النقدى فى انتمائه إلى الطبقات المقهورة.

وعندما تأخذ عملية التحرير السياسى وضعها ، تصف دلالات التحرير نظاما معينا من الإشارات بالنسبة للنظام الجديد ، الذى تندفع أمواجه مجاوزة النظام القديم .

وتحرير الدلالة يخلق كلمات جديدة بسبب أنه يعيد تجديد معنى العالم، إنها شفرات

تاريخية وثقافية جديدة ، فالوحى أو الإلهام المعبر عن الشعب هو بداية تحرير المدلول وتعبئة الشعب .

والشعر الحماسى العام لكل الشعب ، ولكل اللحظات التاريخية هو فن متميز ، إنه فن إبداعى ، إنه يتكلم عما يفوق الوصف ، فى رواية أو قصة التحرير . وسيأتى الوقت الذى يصبح فيه شعر "أرنست كاردينال بالو نيرودا " Ernesto Cardenal Pablo Neruda وأحمد فؤاد نجم" شعرا كلاسيكيا عن ذلك النظام . فى كل الأحداث ، الفن العام هو الفن الأول هو التعبير عن الجمال . إنه يتطور فى الحياة اليومية ، فى الموسيقى فى التصوير ، فى المسرح ، وعلى كل جدران وفى كل ميدان فى دول المحيط المقهور، تعبير عن الشعوب فى واقعها الثورى، إن الجمال العام يجب أن يشكل نقطة انطلاق تحرير الرمز كتعبير عن اتساقه الحقيقى.

ثالثا : تحرير الإنتاج والتصميم

فى تحرير الإنتاج والتصميم (٥٣) يقول دوسيل يعود الإنتاج المادى إلى علاقة الشخص بالطبيعة الفيزيائية ، والعمل فى كل نماذجه . ويهتم الإنتاج بتحويل الطبيعة إلى ثقافة ، إنه يهتم بالعمل المنتج فى أعظم معانيه ، وفيه يتكامل التصميم والتكنولوجيا والفن والعلم . والمغزى الأساسى للتصميم هو ذلك الذى يقدم إنتاجا متناسقا شكليا وجماليا . ولقد ظهر التصميم حديثا (مع الثورة الصناعية) وهويشكل رباط العمل والثقافة.

ويقوم الإنتاج على المعرفة والعلم ، ونجد عند أرسطو أن المعرفة تقوم خلف الفن والمهارة أو الحرفة، فالعقل النظرى عقل برهانى ، والعقل العملى عقل قصدى ، هو تصميم .

وما بين عصر النهضة والقرن السابع عشر ، بدأت التقنية الكلاسيكية تتنوع ، وإلى جانب الفنان والفن الجميل ظهر من جانب آخر التقنى الذى عرف كيف يصنع الأشياء من القصر و الكاتدرائية ، والعربة والساعة . . .إلخ.

فالتقنى أو الفنى عامل متخصص يعمل بمنهجية ومهارة وحرفية ، خبير يُضمن عمله

(53) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION, P. 126-140.

الفن العام، فن الطبقات المسيطرة والجمال السائد .

وقليلا قليلا انتشرت التكنولوجيا ، تقنية الثورة الصناعية ، وهنا يظهر لوجوس جديد أو عقل جديد لم يعد كما كان بالنسبة لأرسطو عقل الصانع بفضل التدريب على يد المعلم . وإنما أصبح اللوجوس أو العقل الجديد عقلا عمليا ونظريا وعلميا ، وليست التكنولوجيا مجرد تطبيق للعلم ، وإنما أُدخل العلم فى النشاط الفنى أو التقنى .

وفى القرن العشرين حدث تكامل التكنولوجيا والفن وجسد التصميم هذا التكامل ، وكلمة " التصميم" فى اللغة الإنجليزية تعنى اختراعا لوظيفة ما . والألف ومئتا مصمم الذين يعملون فى إحدى الشركات لتحسين طراز السيارات ، والمنتج النهائى لم يكن مجرد شيء مصنوع لوظيفة ، ولكن به كان شيئا نتقبله ونعدله جماليا للشعور بالراحة . فالمصمم يدرس اتجاه الناس بالنسبة للشيء المصنوع . والمصمم لا يهتم فقط بالمظهر الخارجى للإنتاج ، ولكن يهتم بالتماسك الوظيفى الجمالى لمجموع الشيء المصنوع .

والأشياء المصنوعة أوالمنتجات وسيط ينشأ عن ضرورة توفير مايحتاجه الناس بالضرورة . فالضرورة تنتج موضوعا مطلوبا لإشباع النقص ، والإنتاج منبعه كل الأفعال الإنتاجية وكل عمل . والشخص كذات منتجة ، " أنا عامل " ، والعمل يجعل الذات أكثر توحد من " الأنا أفكر " . فالموضوعات أو الأشياء المصنوعة هى موضوعات ثقافية ، وفعل الإنتاج فعل إبداع هو فعل ينتج شيئا مصنوعا ، ويحول الشيء الطبيعى ، إلى منتج ثقافى .

والقيمة الاستعمالية للشيء المصنوع هى مايجعل الشيء يخدم غرضا أو هدفا ، يرتقى بالشيء المصنوع ، فوق أن يكون مجرد شيء طبيعى . والعمل هو منبع القيمة الاستعمالية للشيء المصنوع .

والشيء المصنوع الذى يشبع حاجة عند الناس له قيمة وظيفية وقيمة استعمالية وقيمة تبادلية ، والقيمة التبادلية لا تكون مطلقة ولكن نسبية .

لذلك فإن التماسك فى الشيء المصنوع له عدة جوانب : الصورة الوظيفية والقيمة الاستعمالية ، والشكل الجمالى ، وبهم يتحقق تماسك الشيء المصنوع .

كل شيء مصنوع يشكل جزءا من مجموع الدلالات الرمزية الوظيفية الثقافية بينما جانب الأدوات والآلات هو ما يسمى المجال المادى للثقافة . وتعبير الثقافة له معنيان ، فبجانب الشيء المصنوع ، يوجد الشيء المحسوس الذى هو ليس ماديا ولكنه رموز وإشارات .

ويدخل فى بناء الأشياء المصنوعة البعد السياسى ، والجنسى والتربوى والدينى، وتحدد هذه الأبعاد مسبقا جوانب التماسك الصورى للشيء المصنوع .

وثمة تميز بين الشيء المصنوع والشيء الحقيقى أو الشيء الطبيعى ، فرع الشجرة مثلا ، هو فى تكوينه شيء طبيعى،لم يمسه أى تدخل إنسانى أى أنه لم يصبح بعد شيئا مصنوعا .فإن أصبح شيئا مصنوعا كجزء من سهم ، يكون محددا بأنه شيء مصنوع جوهره إنسانى. فمجموع الآلية أو الأداتية ليست شيئا أكثر من ازدواجية داخلية للعالم ، هى لحظة حقيقية للجوهرية الإنسانية. لذلك ماهية السهم ، وليس ماهية الخشب ، هى مجموع ثقافى دنيوى داخله تتحقق وظيفة معينة (فى الصيد مثلا) فالآلية هى لحظة للماهية الإنسانية.

فالشيء المصنوع جزء من النظام الذى يعرفه ويحدده ، وحدوده ثابتة بواسطة المجال السياسى. وثقافة المركز هى النظام الآلى كما هى أيضا ثقافة استعمارية أوليجاركية .حقا التصميم فى دول المحيط، والأشياء المصنوعة المنظمة وظيفيا كل هذا يحتكره أفضل المسيطرين ، ويبدو التصميم كنظام للسيطرة أو التسلط.

ومقاييس التصميم فى المحيط لا يجب أن تكون وفقا لمقاييس التصميم فى المركز،ولا وفقا لتكنولوجياته أو معاييره الجمالية.واقع المحيط يختلف، وثقافات أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا هى على الأفضل بالنسبة للولايات المتحدة ثقافات فولكلورية ، وبالنسبة , للأوليجاركيات القومية ، الثقافة الوطنية والمحلية (القبلية ، والتقليدية) هى ثقافات فجة متأخرة تجاوزها الزمان.

وعلى الرغم من ذلك ، فإنه من أجل أن يوجد إبداع واعد فى التكنولوجيا، والتصميم فى القرن الواحد والعشرين ، فإن المحيط يجب أن يعتمد على نفسه وأن يكون له تصميم آخر على أساس تكنولوجياته التقليدية البسيطة ، ويمكن أن يصبح الناس أثرياء ، عندما

يتمثلون العلم الضرورى دون أن يفقدوا معناهم فى التاريخ ، وإذا كان الآمر كذلك فإن اللغة العامية ، والفطنة والقومية ، والإبداع التكنولجى سوف تزدهر .

ولتحقيق هذا فإن الخروج فى التصميم والإنتاج على نظام المركز المسيطر مطلوب. ولكن خروج المحيط لا يمكن تحديده بشكل نهائى إنه يأخذ صورا متعددة وواحدة من أهم مبررات الخروج فى الإنتاج والتصميم هى " فائض العمل " أو البطالة. وقوة " فائض العمل ، كقوة منتجة غير مستخدمة بواسطة النظام المسيطر ، الذى لا يعرف ماذا يفعل أو ماذا يعمل مع فائض العمل. فقوة العمل المعطلة هى قوة تولدت مع النظام المسيطر(وكانت فى بداية النظام قوة منتجة ضاعفت مجهودها من أجل تحقيق زيادة الإنتاج) . ويؤدى التصور الواعى لقوة " فائض العمل" للوعى بذاتها التاريخية فى العمل الإنتاجى . وذاتيتها تكونت فى بناء النظام المسيطر ، وأظهرت ذاتها كذاتية تاريخية ، كوعى طبقى منبثق يقف كخارج ضد النظام المسيطر . فقوة فائض العمل فى تاريخها السابق مقهورة فى النظام المسيطر ، وفى تاريخها اللاحق خارجة على النظام ، ناضجة الوعى ، تكافح لبناء نظام جديد ، فالذات التاريخية ، ونضج إدراكها العميق شرط إنسانى ، وجه يظهر خارجاً ضد النظام المسيطر ويطالب بنظام جديد .

عندما تظهر الطبقة فى النظام كآخر ، كوعى عميق كطبقة قادرة على إنتاج أكبر ، ووعى بالأسبقية التاريخية الطويلة للنظام المسيطر ، يكون التناقض حقيقيا عندما ترى الطبقة المسيطرة أن الطبقة المسيطر عليها طبقة متمردة وثائرة ، ولا يوجد توافق بينهما ، فالنفى السلبى شأنه شأن النفى الفعال النشط ينبع من ترنسندالية داخلية وخارجية . وفى التناقض الإيجابى تكون الطبقة المختلفة الخارجة المناقضة للنظام شيئا جديدا مرعبا يدخل النظام فى أزمات ، ويؤكد تعارضها ونضالها وكفاحها .

فالعملية الجدلية طريق لمجموع جديد ، ليست مجرد نفى سلبى للنظام ، ولكنها إثبات البديل ، نظام جديد ينهض كخارج آخرعلى النظام المسيطر .

ولكن أمم المحيط تشهد تصميمات غريبة عن تربتها الخاصة . ويقلدون اعتباطا

التكنولوجيات الصادرة عن المركز . ففى الطرق الرئيسية للقرى والأرياف يسير الحمار إلى جانب الشيفورليه ، ويرتدى الفلاح وزوجته الملابس المغزولة ، ويمشى الآخر مرتديا ملابس آخر صيحة. تبعية سياسية واقتصادية وثقافية هى تناقضات تعيشها كل أمم المحيط ، تؤثر فى كل مكونات أصولها الآلية ، وتنفى ثقافتها الشعبية ، وتكنولوجياتها ، وتهدم إمكانية التصميم الذى يصمم فى تناغم مع أيكولوجيا الأمة والقارة وخيراتها وحقوق الجماعات الإنسانية فى المحيط.

التصميم الغريب عن واقع المحيط هو تصميم إيديولوجى ، فيه تخفى الصورة والشكل مصلحة المسيطر ، إنه نمط من الإنتاج خيالى ساحر يخلب اللب ، يحرك أسواق بيعه. ولكن الانشقاق الكبير بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية ، يكشف المعنى العميق للاغتراب، ودلالته الإيديولوجية ، حتى جماليات التكنولوجيا هى فى خدمة وفائدة الاستثمار الرأسمالى.

فى الأمم التابعة للمركز ذلك الإنتاج التكنولوجى الإيديولوجى الصادر عن المركز مطلوب عند الأقليات الأوليجاركية المسيطرة، ليحدد التوازن القومى للاستيراد والتصدير.

ولذلك فإن تحرير الإنتاج ، على مستوى التصميم والتكنولوجيا يتطلب قوة الإرادة الذاتية عند شعوب المحيط حتى تحقق التحرير اقتصاديا وسياسيا ، فالحرية السياسية والاقتصادية يؤمنان بشكل حقيقى الثورة الثقافية والإيديولوجية التى تعرف كيف تقدِّر قيمة الإنتاج القومى والتكنولوجيا المناسبة ، لذلك يكون المطلوب بداية تكنولوجيا وتصميم بمعايير قومية.

والمعيار الأول لكل تكنولوجيا أو تصميم فى بلاد الميحط هو أن يكون ضمانة أو كفالة حق العمل. فالحاجة إلى العمل اليدوى فى المحيط أكثر كثيرا من البلاد المتطورة، فحق الحياة يتحقق ليس عن طريق ضمان ضروريات البقاء مثل الغذاء والصحة ، ولكن عن طريق حماية الكرامة الإنسانية ،عن طريق العمل الذى يكسب الشخص حق الحياة.

والمعايير الأخرى هى استخدام التكنولوجيا المتوسطة إن لم تكن التكنولوجيا الأرقى

ضرورية ، واستخدام المواد الخام القومية ، فالتحرير التكنولوجى و تحرير التصميم هو الموضوع الأساسى حتى وإن كان على المدى الطويل .

وإذا كان العمل التكنولوجى والاقتصادى الذى يدخل فى الإنتاج يحمل قيمة تبادلية ، وقيمة استعمالية ، وقيمة جمالية ،فالعامل عندما يصنع المنتج كعمل فنى يخلق عملا جماليا ، وفى تلك اللحظة سوف يتطابق الاقتصاد والجمال أو الاستاطيقا ، وفى الوقت نفسه العدالة قد تحكم فى السياسة والجنس والتربية ، وتكون المقاربة ولا يكون هناك اغتراب ، وقد تكون هذه يوتوبيا ، ولكن علينا أن نعرف أن الحاجة إلى التحرير تتطلب المعرفة الواضحة منبع العمل والممارسة .

واليوتوبيا غير متحققة ، وغير ممكنة لأن أمم المحيط المقهورة والتابعة ، وسكانها من الفلاحين والعمال والمهمشين ، يعيشون ببيع غريب لوجودهم وواقعهم ، وحياتهم كلها للإيجار ، يعملون ليستمتع الآخرون ، ويأكلون الفتات فى مستوى أدنى من الحيوان ، ولا يملكون أن يعبروا عن ثقافتهم الخاصة وثمرة عملهم مغتربة ، إنهم يعيشون الجحيم على الأرض فى مناجم الذهب والفضة ، وكذلك استعباد الأفارقة ، والآسيويين .

فى فعل التحرير نكتشف المظهر الإنسانى للآخر الخارج على النظام المسيطر (ويبدو الخارج للأبيض الغربى قبحا ظاهرا) فى وجه المكسيكى النحاسى ، والأفريقى الأسود ، والأصفر الآسيوى ، ذلك القبح سيظهر كجمال خلاق ، يعبر عن الشعب المقهور ، وثقافته وواقعه وهذه هى الاستاطيقا الشعبية . فى إنتاج وظيفى نافع ، عمل جدير بالبلد الجديد ، وفى العدل تكون النشوة والدفء والرائحة الذكية ، ومذاق الخبز الذى يغذى الحياة والحب فى حياة الذين حرروا أنفسهم .

رابعا : تحرير الاقتصاد

وفى تحرير الاقتصاد يرى ريكو دوسيل (٥٤) أن علاقة الإنسان بالطبيعة فى الإنتاج علاقة عملية ، والعلاقة العملية هى ظاهرة أساسية لواقع الاقتصاد ، من إنتاج ، وتوزيع ، وتبادل .

(54) Enrique Dussel . PHILOSOPHY OF LIBERATION. P. 140-152.

ويرتبط الاقتصاد على المستوى العملى بالسياسة والجنس والتربية ، وعلى مستوى الإنتاج يرتبط بالتكنولوجيا والتصميم ، بدون عمل لا يوجد إنتاج ، ولا مقاربة عينية عملية ، ولا إبداع ، ووحدة كل هذا هو الاقتصاد .

يدرس الاقتصاد ميكانيزمات الإنتاج العينى والتبادل والتوزيع والاستهلاك فى بناء اجتماعى معين ، ويدرس أيضا التداخل بين تلك الميكانزمات والأبنية الاجتماعية الأخرى فى المجتمع ، واغتراب الآخرالمقهور على المستوى العملى الإنتاجى ، وتحرير الآخر المقهور على مستوى العلاقات العملية الثلاث فى العمل والإنتاج والاقتصاد.

وفى رأى دوسيل أن المفكرين قد نسوا هذه العلاقات العملية الإبداعية، واستسلموا للمذاهب والأوضاع الإيديولوجية ،التى تبرر القهر الاقتصادى كما فى حالة شيلر ، الذى يعلى القيم الروحية التى تضعف الأفراد ماديا : من حيث المأكل والملبس والسكن.

وكان الاقتصاد البدائى يتم فى تجمع الموجودات الإنسانية فى شكل أسر وعشائر وقبائل، وتنتج من الطبيعة ماهو ضرورى لسد حاجاتها .وإنشاء علاقات عملية إبداعية ، يجعل الاقتصاد خبرة إنسانية ضرورية تنتج وتعيد إنتاج الحياة للجماعة.

وكانت بعض المنتجات بما لها من قيمة استعمالية تبادل بالمقايضة ، وباتساع التبادل بين الأفراد والجماعات رسخت القيمة التبادلية فى العلاقات الاقتصادية.

وازداد تبادل المنتجات تدريجيا ، وأصبحت النظم الإنتاجية العملية منظمة تدفع بالسيطرة على الآخرين ، لأن جملة الإنتاج العملى يدعم بقاء أنماط الإنتاج للحياة الإنسانية. فكان الصيد والزراعة والرعى ، وإبداع تكنيكات الصيد ووسائل الحرب. وقد سيطر البعض على البعض الآخر سيطرة عملية ، جعلوا لأنفسهم إنتاج عمل الآخرين ، وفعلوا هذا بطريقتين : التملك لأنهم وجدوا أنفسهم ملاكا لكل وجود الآخر (عبودية) امتلكوا حياته وعمله وثمرة عمله، والطريقة الأخرى الاستيلاء على جزء من عمل الآخر ليعطى لهم بشكل مستمر ومنتظم. وكانت كل أنماط الإنتاج فى القرن الخامس عشر تخضع لهذا.

وكانت أوروبا فى القرن الرابع عشر قد بدأت تعانى الانهيار فى النظام الإقطاعى ،

وتراجع النظام القبلى ، وقد وافق هذا وجود مستعمرات أعالى البحار ، وكانت مصدرا لخزائن الدخل ، ومع القرن الثامن عشر شهدت أوروبا ميلاد نظام إنتاجى عملى جديد "النظام الرأسمالى" ، حيث أصبحت الميركانتالية صناعية ، والإنتاج كسلع بدأ يسيطر.

وبداية النظام الرأسمالى هى الإنتاج السلعى الذى يحمل القيمة التبادلية. ويتجه النظام الاقتصادى دائما نحو أهداف عملية أو مشاريع ، داخل النظام الرأسمالى ، ليكون ثروة ، ذلك لأن المنتجات فى النظام الرأسمالى ليست بشكل أولى لسد الضروريات ، ولكن هى وسيط للربح.

وفى أى مستوى من الاقتصاد قوميا أو اقليميا أو كوكبيا ، النظم الصغيرة تابعة خاضعة للنظام الاقتصادى الكوكبى ، الذى هو مسيطر بواسطة الإدارة الرأسمالية للشركات المتعدية للقوميات ، والنظام الحاكم هو النظام الرأسمالى للإنتاج الذى سجل تاريخه المفكر . Emmanuel Wallerstein

ونمط الإنتاج هو دائما نظام فى تشكيل اجتماعى تاريخى يتضمن علاقة مع الطبيعة وعلاقة مع السياسة ، فهو ليس سياسيا فقط أو تكنولوجيا فقط ، إنما هو وحدة السياسة والتكنولوجيا أو على الأصح مشروط بكليهما.

فالتشكيلات الاجتماعية ، هى أبنية عينية تشكلت فى الواقع تاريخيا عن طريق أنماط مختلفة للإنتاج ، ويسيطر فى التشكيلات الاجتماعية المعاصرة النظام الرأسمالى ، والتشكيل الاجتماعى الرأسمالى نظام كوكبى مركزى ، ولكن فى بحث التشكيلات الاجتماعية فى المحيط ، فى أمريكا اللاتينية ، والعالم العربى ، وأفريقيا السوداء ، والهند وجنوب شرق آسيا ، يجب أن يحتفظ الفرد فى تفكيره بأبنية ما قبل الرأسمالية. ولكن الصين تشكيل اجتماعى اشتراكى ، وكذلك كوريا الشمالية.

ويحدد المضمون العينى التاريخى أساس النظام الاقتصادى بواقعة تقسيم العمل ، والعمل [illegible] الصناعى يفرز فائض القيمة المتجسد فى رأس المال سواء فى المركز أو المحيط. وكل إنتاج اقتصادى تجارى يوجد دائما فى نظام اقتصادى .

مثل كل لحظات فلسفة التحرير أى لحظات الخروج على النظام القائم، بسبب أن الواقع ذاته يدفع إليها ، تنهض لحظة الخارجية الاقتصادية ، وهى لحظة ليست مستوعبة داخل النظام القائم ، هى لحظة لا نظامية ، لحظة " اقتصاد - غير " ana-economy ، حيث توجد مجموعة منتجات هى شيء غير نظام اليوم الحاضر فى الاقتصاد ، وبلاشك أن ذلك الذى هو "اقتصاد- غير " هو خروج على النظام القائم ، يبقى مستقلا يطلق عليه أسم غير لائق بالسمعة لأنه لا يتمسك بقيم النظام القائم ، ولكنه متضمن فى المشروع المستقبلى للذات . إنه اقتصاد الطبقات الفقيرة المقهورة ، والأمم غير المتحضرة التى هى غير مستغرقة فى النظام القائم .

ومن الصعوبة اكتشاف تلك الجماعات الخارجة اقتصاديا فى المحيط بعد وقوع الغزو الإمبريالى ، فالنظم الاقتصادية الموجودة من قبل تحولت إلى نظم تابعة خاضعة داخل النظام المفروض بالقوة وتحولت إلى أنماط إنتاج واقعة تحت السيطرة الإمبريالية . وبالرغم من ذلك توجد بعض الجماعات الخارجة اقتصاديا وهى تشكل أبنية مختلفة من الطبقات العامة فى آسيا وأفريقيا ، ولديها إجراءات مختلفة للتبادل ،وفى هذه الجماعات الخارجة اقتصاديا يوضع "الرمز الثقافى" رمزا للإنتاج والمنتج لأنه ببساطة يعبر عن جهة خارجة ثقافيا ، لا تتبع النظام الإمبريالى ، وإنما تتبع الثقافة القومية والشعبية ، كذات إنسانية منتجة خارجة أسست "اقتصاد غير" أو اقتصاد خارج النظام .

ونلاحظ فى الخبرة الاقتصادية وكذلك الثقافية ، فى الصين أو فى نيكارجوا الجهة الخارجة الشعبية ، والقومية متشابهة بالنظر إلى المركز .

كل ما قيل عن الاغتراب فى النظم المختلفة القائمة وضرورة الخروج عليها ، يمكن أن يكون واقعا على مستوى الاقتصاد والتربية والجنس ، وهى موضوعات أثارها إنجلز فى أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، وأثارها فرويد عندما تحدث عن العمل بوصفه " تأجيلا أو تأخيرا للرغبة" وعلى المستوى التربوى عولجت مسائل بواسطة المفكر " ILLICH فى افتراضاته الضد مدرسية ، فالمدرسة التى تبتعد فى مناهجها عن الثقافة الشعبية فى التواصل

التربوى تجعل ذاتها الوسيلة الوحيدة للتربية ، تترك الشعب جاهلا وغير مثقف (لأن المدرسة لم تبدأ من الثقافة الشعبية) .

واغتراب الاقتصاد القومى قضية أساسية لفلسفة التحرير ، لقد بدأ التوسع الأوروبى منذ القرن السادس عشر وأخيرا التوسع الأمريكى يُغرب اقتصاديات الشعوب (فى أمريكا اللاتينية ، والعالم العربى ، وأفريقيا السوداء ، والهند ، وجنوب شرق آسيا . مع استثناء الصين وفيتنام ، وبعض البلاد القليلة الأخرى . التشكيلات الاجتماعية للمحيط ، الأمم التابعة المسيطر عليها بواسطة النظام الإمبريالى . ونتائج سيطرتها عديدة ، من انخفاض أجر العمل اليدوى ، وانخفاض ثمن المواد الخام ، وارتفاع أسعار البضائع المصنعة ، وقد برهن سمير أمين على هذا أن ٨٠٪ من سعر الفائدة التى يحققها المركز فى تبادله التجارى مع المحيط من عمل العامل والفلاح . فجزء من عمل المحيط مدفوع للمركز فى شكل رخص ومعاهدات ، ومعدلات فوائد باهظة على القروض ، والتكنولوجيا غير الملائمة ، وتقارير مزيفة عن الإنتاج والشركات المتعدية القومية فى بلاد المحيط ، وسرقة فائض القيمة المتحققة فى المحيط ، واغتراب المغتربين الحادث فى زماننا هو أمر من الأمور المدمرة .

الأساليب المتطورة للاقتصاد تتجه لجعل العالم يعتقد أن المناطق الأقل تطورا ، هى بلاد متخلفة لا تحاكى أساليب البلاد المتطورة . وربما يكون الحل جلب رأس المال والتكنولوجيا إلى البلاد الفقيرة (المعتمدة على الاستيراد) ، وهذه الإيديولوجيا فى التطوير لم تفهم ، ولم تعترف بأن هذه المناطق المتخلفة مناطق مسروقة ، والظلم الدولى يؤرخ بخمسة قرون مضت فى استغلال المحيط ، ولن يكون هناك تطور حقيقى بدون توقف التبعية و تحرير الاقتصاد القومى .

إن رأسمال المحيط عمل مغترب ، ويحدث اغتراب السوق القومى عن وسائل رأس المال القومى التابع ، من سرقة فائض قيمة العمل أى الأرباح التى يجنيها رأس المال مما يجب أن يدفع للعمال ، فيشتد التفاوت الطبقى ويعرقل التحرير القومى لكونه يحتضن الهيمنة الرأسمالية .

وكل مشاريع قومية تعتمد على تكنولوجيات المركز وتعيش بشكل طفيلى فى حالة تبعية تامة.

ونماذج التبعية الاقتصادية الفاشية الجديدة ، مثل البرازيل أو شيلى أو الأرجنتين ١٩٧٦ ، مع القهر الاجتماعى والرأسمالية التابعة، والأنماط الشعبية من امتزاج الطبقات الخاضعة لهيمنة البرجوازية القومية على البروليتاريا ، وماهية مثل هذه الأنماط سمحت لرأس المال فى المحيط (العمل الفائض) أن يترك أوطانه إلى المركز. وهذا يجعل من الصعب تحرير اقتصاد المحيط.

إن الاقتصاد الإمبريالى المتطور ، يستعبد الناس ليعملوا فى الطبيعة من أجل منفعته وسيطرته، ولذلك فإن التحرير الاقتصادى هو تحرير عينى وتحرير إنسانى. والعملية التى يضع فيها المقهورون أنفسهم فى مشروع اقتصادى جديد يعبرون بها عن تأكيد وإثبات خارجيتهم الثقافية.

فالتحرير الاقتصادى للأمة المقهورة هو مشروع مستقبلى للذات تحرير الاقتصاد وتحقيقه فى نموذج عملى. ولكن توجد ثلاثة نماذج عملية : الأول نموذج تدخل الشركات متعدية القومية(وهذا نموذج التبعية الرأسمالية) ، والثانى نموذج القائد الإدارى للبرجوازية القومية (رأسمالية مستقلة) ، والثالث النموذج الاشتراكى بواسطة الطبقة العامة الشعبية أو الجماهيرية.

فى دول المحيط المشاريع القومية مشاريع الدولة ، لأن برجوازية المحيط ولدت متأخرة جدا، ولم تحصل على فائض قيمة ، كما فعلت البرجوازية الاستعمارية الانجليزية والفرنسية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ويمكن القول إن نموذج التغير فى دول المحيط سوف يتجه من التبعية الرأسمالية إلى الاشتراكية أو سياسة شعبية قومية.

و لقد تأسس المذهب الإنسانى البرجوازى على العمل اليدوى فى صراعه ضد النبالة الوراثية فى القرن التاسع عشر ، وقد أقرت الثورة الانجليزية والفرنسية الملكية الخاصة وورثتها .بوصفها حقوقا إنسانية وإلهية ، قادرة على التراكم والزيادة، مملوكة لنفس الأيدى،

ونفس الطبقة ، وتم تثبيتها دستوريا وقانونيا ، ملكية دائمة بالوراثة.

وفى الحال أصبح البعض يمتلكون كل شىء ، والآخرون لا يملكون شيئا ، وحرية الإنتاج الاقتصادى ، والبيع والتخفيض ، والإعلان محكومة بالمنافسة. ومن الواضح أن الذئب الكبير يأكل الذئب الصغير كما قال هوبز ؛ ولذلك فإن تحرير الشعب المقهور يتطلب إعادة تأسيس العدالة ، فالحرية الاقتصادية حقيقة مصدق بها ممكن ممارستها. ولكن لا تكون حرية القوة المدمرة للضعيف ، بل تكون الحرية التى يستطيع فيها المتساوون اختيار ما هو عدل ، وهذا يتطلب تفكيك الأبنية التى أرست تشويه النظام الاقتصادى الحاضر والتى تروج للنظام الذى يحصل على فوائد خلال ابتياع عمل الآخرين ووضعه موضع المزايدة لصاحب العطاء الأعلى.

وراثة النظام الرأسمالى ، وراثة رأس المال وبيع العمل الذى تحقق فى العصور الوسطى ، أعيد تحديده أثناء الثورة الصناعية ، إلا أنه مع مجىء الاحتكارات العالمية والقومية لم يعد محددا بالمحيط ، وتحرير طبقات العمال والفلاحين اقتصاديا ، يدعو الجميع للثورة الاقتصادية وفلسفة الاقتصاد يجب أن توضح أن الانتقال إلى نظام كوكبى مازال بعيدا عن المحيط ، لأنه نظام يجاوز الأسلوب الرأسمالى للإنتاج.

الاقتصاد بالنسبة للمقهور هو اقتصاد التحرير ، إنه فعل فيه الميتافيزيقا متحققة بشكل تاريخى ، إنه عبادة تقدم للمطلق أى الشعب المقهور ، إنه ممارسة وعمل يختبر فى توسطات واقعية حقيقية فعالة. المقهور جائع و الجائع يطلب خبزا ، والخبز يتطلب إعدادا وتجهيزا يبدأ من الأرض وبذر البذور ، وتخصيب الحقول ، وجمع المحصول وطحن الغلال ، وإعداد الخبز ونقله ووضعه ، فى أطباق للشخص الجائع ، إنه يشتمل العمل والمعاناة ، والمهارة والتكنولوجيا ، والتصميم ، والفن ، إنه يتضمن الإبداع والإنتاج والعدالة والمساواة والحرية ، إنه يتضمن الخدمات والثقافة ، والعبادة.

الاقتصاد الحر هو خدمة بعدل ، بدونه كل شىء وهم وفوضى ، فالتحرير الاقتصادى ليس مجرد حماس إنه مشروع مستقبلى للذات ، يتطلب وسائل وسيطة فعالة كافية

وتصميمات تكنولوجية، وعملا علميا ، وبدون التحرير الاقتصادى الذى يقوم على فاعليات المؤسسات الشعبية والقومية والتقليدية ، لا يوجد هناك تحرير حقيقى .

فبدون عمل فعال وعلم لا يوجد خبز ، وبدون خبز لا يكون الشعب حرا، وبدون توزيع عادل يبقى الخبز بعيدا عن يد الفقير.

فالاقتصاد بالنسبة للمقهور يبنى منزل العائلة المتحررة ، يبنى المجتمع والمدارس والثقافة والتاريخ بعدل.

الخاتمـــة

وبعد.. تلك هى فلسفة التحرير ، ليست مجرد خطاب فلسفى عن "الحرية" وإنما هى خطاب عن "عمل التحرير" ، خطاب يتوجه إلى ملايين المقهورين فى الأرض ، وبشكل خاص فى محيط المركز المهيمن، ويفجر وعى المقهور ليجاهد من أجل الحياة ويستعيد حقه بالعمل ، ويندفع بشكل جديد فى التاريخ ،خارجا على النظام القاهر ، ناقدا للقهر ، ومغيرا الواقع .

فلسفة التحرير إطار نظرى لعمل التحرير ،يتخذ ريكو دوسيل من الديالكتيك منهجها، ومن المعرفة العلمية نظرية لها. لذلك يصفها بأنها معرفة ديالكتيكية علمية ، ويبدو ماركس حاضرا فى تفكير ريكودوسيل ، على مستوى المنهج والفكرة والمصطلح، إلا أن طبيعة عمل التحرير تختلف عند دوسيل عن ماركس ، فالتحرير عند ماركس كثورة جذرية تتحقق فى توافر شروط أساسية فى مقدمتها نضج وعى الطبقة صاحبة الدور التاريخى طبقة البروليتاريا واحتدام الصراع بين طرفى التناقض الأساسى فى المجتمع الرأسمالى أى بين طبقة البروليتاريا والطبقة البرجوازية، وهو صراع لا يتوفر إلا فى حالة تطور البرجوازية الصناعية، وما يترتب على هذا التطور من تعميق للتناقض وشدة الصراع مما يسمح بالثورة ، بينما عمل التحرير عند دوسيل يبدو قريباً من غاندى ، ويصف دوسيل عمل التحريربأنه" مشروع مستقبلى" يتصف بالإمكان ولإمكانه شروط ، ويسميه دوسيل مشروعا لأنه لا توجد إمكانية واحدة يمكن أن تحقق بشكل تام مشروع التحرير. وفكرة المشروع تذكرنا بسارتر ولكن مع الفارق بين سارتر ودوسيل. سارتر يتحدث عن الإنسان باعتباره "مجموع مشروعاته المستقبلية"(٥٥) فالإنسان مشروع لم يكتمل بعد أو لم يتحدد بعد ، وكون المشروع جملة إمكانيات ، كلما حقق الإنسان إمكانية ظهرت أخرى ، فالإمكانيات مفتوحة بلا نهاية، ولو اكتملت لتحول الإنسان من " شىء لأجل ذاته" إلى " شىء فى ذاته" ، وهو ما لا يريده سارتر للإنسان، إنه يريد للإنسان التطور المستمر ، لا يريد له الجمود أو التحجر بأن يصبح " شىء فى ذاته" تجمد وجوده وتحددت ماهيته.

(٥٥) مراد وهبة ، مقالات فلسفية وسياسية ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٧، ص١١٦ .

لكن عند دوسيل هو لا يبحث عن تحديد وجود الإنسان ولا ماهيته ، إنه يبحث عن عمل التحرير ، تحرير المقهور ، وباعتبار فلسفة التحرير جدل النظرية والعمل ، يسمى ريكو دوسيل التحرير " مشروعا مستقبليا لكل ذات مقهورة " فكلمة مشروع تشير إلى أن التحريرممكن ، وإمكانية عمل التحرير تتطلب وعى الذات بالإمكانيات المحيطة - والتى يسميها دوسيل توسطات أو وسائط - كما يتطلب أيضا قدرة الذات على الاختيار بين الإمكانيات والسيطرة عليها . وفى القدرة على اختيار الإمكانيات والسيطرة عليها تكون الحرية ممكنة، فحرية الذات تتوقف على اختياراتها ، إلا أن اختيار إمكانية يفضى إلى صعوبات فى طريق التحرير ، ولكن هذا لا يلغى مشروع التحرير أو يجهضه ، لأن اختياراتنا نسبية وجزئية وليست مطلقة. ففى الاختيار بعد الاختيار ، والقرار بعد القرار يكون التحرير ممكنا، وهذا هو معنى قول دوسيل إن التحرير ممكن لأنه لا توجد إمكانية واحدة تحقق بشكل تام المشروع المستقبلى للذات، فالإمكانيات ليست تامة ولكنها ممكنة"(٥٦) بذلك يستمر الجدل ويستمر التحرير ومن ثم يصبح عمل التحرير أسلوب حياة للناس.

ويبدو دوسيل فى طبيعة عمل التحريرأقرب إلى غاندى ، حيث يبدو المقهور بفعل الوعى فى محاولته الخروج على النظام القاهر كقارض ينخر رويدا رويدا فى أبنية النظام القاهر حتى ينهار الكيان كله ، وذلك لا يتحقق إلا بوجود الوعى النقدى عند المقهور وهو الدور المطالب به فيلسوف التحرير فى الارتباط بالمقهور ومقاربته والخروج به على كل أبنية النظام القائم فى التكنولوجيا والإنتاج والتصميم والاقتصاد والتربية والثقافة والجنس ومناهضة قدسية النظام وسياسته فى التبعية والعمالة.

ويتسع معنى المقهور عند دوسيل لأبعد من الطبقة العاملة صاحبة الدور التاريخى فى الثورة والتحرير الشامل عند ماركس ، ليشمل أيضا الفلاح والمرأة والأقليات المقهورة من الأغلبية والمغتربين والفقراء المغبونين اقتصاديا بفعل الظلم وغياب العدالة ، وخدم البيوت، والشحاتين وبمعنى أوسع يضم شعوب دول المحيط المقهورة. بذلك فإن ريكو دوسيل فى تحديده للمقهور صاحب المصلحة فى نقد الواقع وتغييره يبدو أقرب إلى " ماو " الذى اعتمد

(56) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION,P.P.38-39.

في تحقيق الثورة الصينية على الفلاحين إلى جانب العمال.

فلسفة التحرير ليست مجرد نظرية فلسفية لأن اهتمامها البحثي الأول هو عمل وممارسة تحرير المقهور، ونقطة انطلاق خطاب التحرير هو الموقف الإنساني الناتج عن عمل السيطرة والقهر، أي أنه الشرط المسبق العملي لإمكانية ابتداء خطاب يجعل فلسفة العمل الفلسفة الأولى، وليس أي عمل مهما كان ولكن عمل التحرير، فذلك هو معيار حقيقة خطاب فلسفة التحرير عند دوسيل

إن فلسفة التحرير، التي يمكن وصفها بأنها أداة استراتيجية و سلاح للتحرير ذاته "عمل التحرير عمل عظيم، عمل مسئول بلا مقابل، يدفع ذاته بثقة نحو المستقبل. ويسمح بتخارج ذاته في أعمال إبداعية وثورية، عمل يكشف عن ذاته في تفكيك النظام القائم القاهر وتدميره، وإبادة تخوم القمع. ولذلك يبدو في عين النظام عملاً غير شرعي وغير قانوني، باعتباره ضد القوانين الموجودة التي هي قوانين النظام القائم الجائر، فالوضع الحتمي للتحرير مخالف للقانون"(٥٧).

وعند ريكو دوسيل فلسفة التحرير كمشروع مستقبلي، نقطة انطلاقة هو واقع الذات المقهورة المطلوب نقده وتجاوزه، وفعل النقد المتجاوز هو فعل التحرير، هو تجاوز الحاضر إلى المستقبل، هو فعل الهدم والبناء. وهدم النظام القائم شرط لإمكانية وجود نظام جديد، فالتحرير هو لحظة نفي النفي في النظام وإثبات خروج المقهور على النظام القاهر، ولذلك فإن للهدم والبناء مطالب وشروطا.، في مقدمتها دور فيلسوف التحرير وترابطه ترابطا عضويا مع المقهورين، وبقدر ما يخلق هذا الترابط وعيا نقديا عند المقهورين، يكون شرطا أساسيا في تعديل خبرة الفيلسوف لأن الخبرة التي توجه مسار التحرير في عصر معين لا تكون هي الطريق الدائم للحياة، فالواقع الفعلي متغير دائما وهو ما يؤكد عليه ريكو دوسيل.

وعندما يكون الفيلسوف في وحدة عضوية مع الذات التاريخية أو الشعب المقهور يصبح الفيلسوف جانبا من الحركة العامة؛ لذلك تعيد فلسفة التحرير تشكيل ذاتها بمعيار الكفاح

(57) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION,P.66.

الإيديولوجى ضد الخطاب المسيطر فى نظام القوة ،وأجهزة السيطرة وبالطبع خطاب فلسفة التحرير خطاب مضاد للخطاب المسيطر فى الأجهزة الأكاديمية والجامعات .

ويصف ريكو دوسيل واقع فلسفة التحرير في دول المحيط فيقول إن فلسفة التحرير منتج إستراتيجى نظرى لثورة عميقة تطوق واقع بعض دول المحيط خاصة أمريكا اللاتينية التى تعانى آلاما مبرحة فى ولادة حقبة تاريخية جديدة والتفكير الفلسفى بحاجة إلى أن يكون لديه على الأقل القليل من الحرية المؤكدة ، وعندما تنقصه الحرية تموت الفلسفة ...

وينموالخطاب الفلسفى النقدى فى الفضاء السياسى ، فى البرازيل ، وبيرو ، وأكوادور وسانت دومينو وبنما ، وينفتح على أنواع معينة من الديموقراطيات الاجتماعية ، فالطريق صعب وتاريخ القهر طويل ، ونقص التفكير النقدى يجعل الطريق صعبا ، وكثير من المحاولات الشعبية مطلوبة لأن الأوضاع الثورية لم يكن من الممكن قبولها ...

ولكن فلسفة التحرير مقموعة اليوم فى الأرجنتين ، وأرجواى ، وشيلى ، وبوليفيا ، وبراجوى ، والسلفادور وجوا تيمالا .. إلخ فالفضاء السياسى للتفكير النقدى ليس موجودا ، والأيديولوجيا العسكرية للأمن القومى ـ تُعلم فى المدرسة الأمريكية فى بنما ، لم تتسامح بأى شكل مع الموضوعات الفلسفية للتحرير أو الخطاب الشعبى الديالكتيكى المضاد . والقمع وصل إلى المستوى الاجتماعى والنفى ، والتعذيب يستخدم كوسيلة للإقناع . . وإن يكون فيلسوف التحرير فى هذا الموقف فهو يكون فى خطر الموت ...

ولذلك فإن فلاسفة التحرير الذين هم فى المنفى ، هم فى فضاء سياسى أكثر رحابة ، لتطوير خطاب التحرير ، بهدف مزدوج ، فمن جانب أول ، نمط النقد الراديكالى الواضح للأخطاء النظرية مثل أخطاء (المذهب الشعبى فى الفلسفة السياسية) ، ومن الجانب الثانى ، أن نضع أنفسنا فى مهمة توضيح الموضوعات أو القضايا الإستراتيجية العظيمة لتكون ملائمة فى العقود القادمة...

ويبدو على العكس فى كولومبيا أن الفضاء السياسى للتفكير الفلسفى منغلق ، والعلماء الاجتماعيون المشهورون سجنوا وعذبوا .

ولكن الخطاب الفلسفي للتحرير يمكن أن يمارس ، بنسبة من الحرية في المكسيك ، وفينزويلا ، وكوستا رايس أي أنهم فضاءات للإنتاج النقدي الفلسفي ، الذي يمكن أن يؤثر في البلاد الخاضعة للكبت والقمع الرهيب . والتي لم يصل إليها بعد خطاب فلسفة التحرير ليُعاش ويكون حياة . . .

وفي كوبا ونيكارجوا ،سوف تتناول فلسفة التحرير في المستقبل القريب موضوعات مختلفة ، عن تلك الموضوعات في البلاد الأخرى ، حيث الثورة ما تزال حدثا مستقبليا ، والتفكير المركزي داخل موقف التطور الموجود في كوبا ليس سياسيا ولكنه تكنولوجي إنتاجي ،وإيديولوجي، لأن زيادة الإنتاج وتطور القوى المنتجة هو في حاجة إلى فلسفة الإنتاج والتي ربما تسمى فلسفة الإنتاج والإبداع والتصميم Poiesis ، وبهذه الطريقة فلسفة التحرير ستفتح فصلا جديدا وتثبت أن التكنولوجيا ليست عالمية ، وأنها مستقلة على الإطلاق ، وتوافق حاجات ومطالب محددة وبدرجة تطور التشكيل الاجتماعي في المشاركة في الثورة العلمية والتكنولوجية(٥٨) .

وبهذا يكون ممكنا في نظر ريكو دوسيل وجود تقسيم عالمي لعمل التحرير ، وتحرير المقهور ليس مهمة المفكرين وحدهم ففي كل بلاد العالم ، فلسفة التحرير يمكن ممارستها في كل مكان وفي كل المواقف ، عندما يوجد قهر أو قمع لشخص من شخص آخر ، أو طبقة تقهر طبقة وتقمعها أو أن أغلبية تقهر أقلية عرقية . وهكذا على أساس الفضاء الاجتماعي والسياسي ينهض خطاب فلسفة التحرير في كل بلد بمنهجية ومقولات أشرنا إليها من قبل ، ولكن تتنوع موضوعات وقضايا خطاب التحرير وتتعدد بما يلائم الفضاء الذي تنشأ فيه، ففي الولايات المتحدة مثلا ، يمكن أن تنال فلسفة التحرير من خبرة قهر الشعب وقمعه عن طريق نظام الاستهلاك . فعقلانية صنع الربح والفائدة في الماضي ، بدأت تظهر عدم عقلانيتها اليوم بحق . وفي إسبانيا حيث تعاني الأقليات والمرأة ، والمعالجة الإيديولوجية التي تخفي عن العامة ما يفعله الإمبراطور ، وإفقاره للشعوب الفقيرة أكثر . . .

(58) Enrique Dussel , PHILOSOPHY OF LIBERATION,P.193-194.

وفى السنوات الأخيرة فى القرن العشرين ، فى آسيا وفى أفريقيا تهتم الفلسفة بموضوعات أخرى للتحرير مثل الحوار مع الثقافات القديمة ، والسؤال عن قضية الاستعمار الجديد ، وكذلك فى أمريكا اللاتينية مع الاختلاف من بلد لآخر ويقول ريكو دوسيل إن لديه وصفا مختصرا لبعض المجالات البحثية ، داخل فضاءات الفلسفة السياسية المتنوعة...

وفى النهاية يرى دوسيل أن التقسيم العالمى للعمل الفلسفى ، فى مجموعات متنوعة وبلاد مختلفة ، لها مهام مختلفة تسمح لنا أن نبدأ حوارا مثمرا لا يدور حول قضايا نمطية ، فذلك ليس مطلبه ، فالقضايا النمطية مرفوضة رغم احترام كل المواقف ، وكل الخطابات الفلسفية الأخرى[٥٩] .

(59) Ibid ,P195.



هذا الكتاب

قراءة لكتاب «فلسفة التحرير» للفيلسوف المكسيكى «ريكو دوسيل» . إنه إطار نظرى لعمل التحرير ، موجه إلى الشعوب المقهورة فى العالم الثالث، فى مواجهة واقع القهر الذى يفرضه التسلط والسيطرة الإمبريالية الأمريكية، ونظم الحكم التابعة والعميلة لها. ويرسم الكتاب طريق التحرير فى نقد القهر ومقاومته، طريق لا طريق غيره أمام المقهور، فمن لا يخاف الموت يكون مخيفاً ، طريق يبدأ بمقاربة الفيلسوف للمقهورين، والخروج بهم على النظام القائم القاهر، والإلحاد بقدسيته سياسياً وتربوياً وجنسيا ، فى صحوة للضمير الأخلاقى، والنقد وتحمل المسئولية، وتحرير التصميم والإنتاج وبناء اقتصاد حر ينزع رداء التبعية.. وفكر حر لا ترديد ولا تقليد، وقراءة جديدة للدين، العبادة الأسمى خدمة المقهور، تلك هى فلسفة التحرير تحكى واقع العالم المقهور وترسم طريق نقده وتغييره.

الناشر